BADAWI

TARIKH AL-TATAWWUR
AL-DINI

2267
.108527
.391

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

احمد زكي بدوي
Badawī, Aḥmad Zakī
Princeton University Library
32101 073505792
Tārikh al-taṭawwur al-dīnī

تاريخ التطور الديني

تأليف

احمد زكي بدوي

مطبعة المجلة الجديدة

(RECAP)
2267
.108527
.391

الى أحرار الفكر

65-14

مقدمة

رغم أن الدين أهم نواحى النشاط الانسانى وأقوى تراث ثقافى فان اللغة العربية تكاد تكون خلوا من الكتب التى تتحدث عنه . وأقصد هنا بالدين المظهر الاجتماعى لسلوك الانسان نحو الله كما يراه الباحث الاجتماعى مجردا فكره عن أى اعتبار شخصى . فهو يدرس الدين كما يدرس باقى المظاهر الاجتماعية كالأسرة والقانون والأخلاق وغيرها

وليست دراسة الدين بالأمر الهين فما أكثر الأديان وما أعقدها ، وقد توضع عشرات الكتب عن دين أحد القبائل البسيطة كالبولينيزيين مثلا ومع ذلك فان الباحث يراها أقل من أن تفى هذا الدين حقه من الدرس والبحث . ولذلك كانت كثرة الكتب التى وضعت باللغات الأوربية عن الدين تستوجب الدهشة . الأمر الذى دفعنى إلى هذا الكتاب الصغير . وهو وان كان قليل القيمة الا اننى أرجو أن يكون مشجعاً للباحثين على الكتابة فى هذا الموضوع

لا يتحدث هذا الكتاب عن جميع أديان العالم بل عن ما يمكن أن نسميه مجموعة الأديان الغربية العالمية وأهمها الاديان الفطرية والديانة المصرية القديمة واليهودية والمسيحية والاسلام والتطورات الدينية الحديثة . وذلك تمييزا لها عن مجموعة الأديان الشرقية الهندية والصينية وعن الأديان القومية كديانة اليونان والرومان

والسبب فى اقتصار البحث على الأديان الغربية هو رغبتى فى التحدث عن الدور الذي لعبته مصر بالنسبة للأديان ، وقد كانت مصر بطبيعة دينها وتاريخها أقرب صلة بالأديان الغربية منها بالأديان الشرقية ، فان تحدثنا عن تاريخ الأديان الغربية فانما نتحدث عن أحد نواحى تاريخ مصر نفسه ، بل نتحدث عن ما هو أكثر من ذلك وهو الصلة القوية التى تربط هذه الاديان حتى انها تكاد تجعل منها عقيدة واحدة المصدر متغيرة المظاهر بتأثير البيئات التى انتشرت فيها وبدافع الظروف التى اكتنفتها

ولو أن تاريخ الانسانية يعتبر ناقصا مبهما إذا ما أسقطنا منه تاريخ آلهتها ، فان دراسة الاديان ظلت زمنا طويلا بعيدة عن أفق العلم ، ولم يهتم بها العلماء إلا منذ عهد قريب

اهتم بعض المؤرخين الاغريق قديماً بأفكار وعادات الشعوب التى اختلطوا بها . وقد سمى لذلك هيرودوت « أول عالم أنتروبولوجى للدين » وكذا وصف تيوبمبس الوثنية الفارسية فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولما كان ميخاستين سفيرا للبلاط فى الصين عام ٣٠٢ ق . م دون ملاحظاته عن العادات الوثنية فى أواسط وادى الجانجز . ولما ظهرت المسيحية دون كثير من الآباء المسيحيين

القدماء كثيراً من الملاحظات المتعلقة بالعقائد المنتشرة حولهم من أوجه نظر عديدة. واشتهرت مكتبة الاسكندرية فى عهد بطليموس فيلادلف أي فى القرن الرابع بعد الميلاد بجمع الكتب المختلفة فكان من خطة أمنائها جمع الكتب المقدسة التى للأثيوبيين والهنود والفرس والبابليين والاشوريين والاغريق والرومانيين والفينيقيين

وفى العصور الوسطى نرى البوريني (٩٧٣ م) يقارن بين عقائد الاغريق والمسيح واليهود بفلسفة وديانة اليهود ، وجمع أمبراطور المغول الاكبر فى بلاطه (١٥٤٢ — ١٦٠٥) البراهمة والزرادشتيين واليهود والمسيحيين والمسلمين وحاول ترجمة كتبهم المقدسة

ولما ظهرت النهضة فى الغرب ابتدأت دراسة الدين تأخذ أساسها العلمى الحديث، فدرس توماس هيد (١٦٣٦ — ١٧٠٣) ديانة الفرس القديمة ، وحلل جون سبنسر (١٦٣٠ — ١٦٩٣) القوانين اليهودية وبحث من جديد نظرية استخدام الله لطقوس وأفكار متوسطة فى قيمتها لكى يمهد السبيل لما هو أرقى منها . ويعتبر سبنسر أول من كتب فى علم الاديان المقارن . وكذا حاول اللورد هربرت (١٦٤٥) أن يرجع أصل جميع الاديان الى الحقائق الاولى الخمسة للكائولوكية وظلت نظريته سائدة مدة قرنين وكان جلادستون (١٨٦٨) آخر المبشرين لها . ثم وضع كودورث (١٦٧٨) كتاب « النظام العقلى الحقيقى للوجود » قائلا ان الانسان لم يكن مطلقا ملحدا فان الاوثان كانت مجرد رموز . وأتى بعده دافيد هيوم فوضع بحثه عن التاريخ الطبيعى للدين (١٧٥٧) على مبدأ تطور الجمعية البشرية من نشوئها الفطرى

ومنذ ذلك الوقت قامت الابحاث الحديثة على فكره النشوء . ويعتبر ديبوا أول من كتب فى تاريخ الدين كتابة علمية فى كتاب « أصل جميع العقائد » (١٧٩٤) فحاول أن يرجع أصل جميع الآلهة حتى المسيح الى أسطورة الشمس

وبمرور الزمن وجدت هذه الابحاث انتشارا عظيما ، فابتدأت بعثات الجزويت فى الهند والصين وأخذ يعمل كثير من الباحثين الانجليز بزعامة وليم جون وكلبروك على نشر كنوز الادب السنسكريتى ثم أخذ الباحثون الالمان والفرنسيون يوسعون أفق البحث . وكان اكتشاف حجر رشيد فى مصر مفتاحا للغة الهيروغليفية . وكذا اكتشفت الحروف المسمارية فمكن ذلك العلماء الاوربيين من معرفة محتويات مخلفات مصر وبابل وأشور . ومن ثم أخذ السياح والبعثات الدينية تصف عادات القبائل الفطرية فى كل مناطق العالم . وفى نفس الوقت كانت الفلسفة تعمل على حل مشكلة الشعور الدينى . فحاول كثير من الفلاسفة الالمان أمثال ليسنج وهردر وكانت وميجل وفيخت وشيلر ماخر وأتباعهم شرح الدين على ضوء العقل ، وارجاعه الى أصوله من الفكر والشعور . وشرح كونت

نظريته المشهورة (١٨٤١) عن أدوار المعرفة الثلاثة . بينما كان علم الشعوب Ethmagraphy يجمع الحقائق من كل أجزاء العالم ، وابتدأ علم النفس يحلل أشكال المعتقد والشعور الدينى

أما من وجهة النظر التاريخية واللغوية فقد ابتدأ البحث فى أول الامر فى موضوع الاساطير فحاول مكس موللر فى كتابه (الميثولوجيا المقارنة) البحث عن العناصر المشتركة فى الفكر الآري ليصل الى أسرار الديانة الفطرية . ثم تبعه جريم ومانهاردت ، فكان ذلك بدأ تكوين علم الانثروبولوجيا . ومنذ ظهور كتاب تيلور (الثقافة الفطرية — ١٨٧١) وجدت دراسة نشوء الدين كثيرا من حماسة الباحثين . فأخذ كل من موللر وهربرت سبنسر يشرح نظريته فى نشوء الدين . فعزا الاخير أصل الدين الى عبادة الموتى وتبعه جرانت الن وليبرت فى ألمانيا ، ولكن أندرو لانج كان من المعارضين لهذه النظرية فأصدر كتاب (السحر والدين — ١٩٠١) وقال ان فكرة الاعتقاد بكائن أعلى ظهرت ضمن سياق التطور ثم انحطت بعد ذلك عند ما اعتقد الانسان بالعفاريت والآلهة الصغيرة . ووجد جيوفنز الاصل الاول للدين فى الطوطمية فى كتاب (تاريخ الدين ١٨٩٦) ويرى فرازر ان الدين أحد أدوار السحر ، ويرجعه كرولى فى كتاب (شجرة الحياة ١٩٠٥) الى غريزة الحياة ويربط مظاهره الاولية بعمليات الحياة العضوية . أما ولهلم وندت فى كتاب (الخرافة والدين) فيقول ان التصورات الاولية عن الروح هى مصدر نشوء الدين

وعلى العموم فان مسألة نشوء الدين لايمكن تحديدها من الوجهة الارخولوجية أو التاريخية بل يجب أن يشترك علم النفس فى هذا التحديد. وان ما يضعف هذه النظريات هو فروضها ، كما يضعف الابحاث التاريخية المبالغة فى التأمل الذاتى ولذلك ظهرت فى أوائل هذا القرن طريقة جامعة بين الدراسة التاريخية والابحاث الانثروبولوجية ، ويعتبر جريبنر وانكرمان « ١٩٠٤ » وشميت « ١٩٠٨ » واضعى أسس هذه المدرسة التى يطلقون عليها المدرسة التاريخية الثقافية

ليس الدين فى الواقع الا أحد المظاهر الاجتماعية ، ولذلك فان دراسته تعتبر ضمن العلوم الاجتماعية التى تخضع لقوانين البحث الاجتماعى ، ومن بديهيات هذه القوانين ، أننا لكى ندرس أي مظهر اجتماعى لابد لنا من تقسيمه الى أربعة أقسام — « ١ » الناحية التشريحية « ٢ » الناحية الفسيولوجية « ٣ » الناحية الفلسفية « ٤ » الناحية التاريخية وبعبارة أخرى يجب أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة — « ١ » ما هو الدين « ٢ » ماهى وظيفته؟ « ٣ » ماهو الغرض منه ؟ « ٤ » كيف نشأ وتطور ؟ ، والسؤال الاول يلوح أنه بسيط بالنسبة للشخص العادى الذى لايعرف الدين إلا من الناحية العملية ، ولكنه سؤال عسير بالنسبة للباحث الذى يدفعه تفكيره الى مراعاة جميع العقائد الدينية من أبسطها الى أعقدها

وضعت كثير من التعاريف لكلمة الدين أهمها تعاريف سبنسر ومكس موللر وروانس وجوبلت والافيلا وكثير غيرهم وهم يرون أن الدين هو « التسليم بقوة خفية تحتاج الى التعبير عنها » أو هو « قسم من الفكر » ويرى شليرماخر أن الدين هو شعور الاعتماد على الله أو هو « الميل الطاهر التبجيلى أو الشكل العقلى الذى نسميه التدين » ويري تيل « أن أساس التدين وروح الدين هما العبادة »

ولكن التقدم الحديث لعلم النفس والعناية المتزايدة والعمل الدقيق الذي قام به علماء الانتروبولوجيا أدى الى ادحاض هذه الآراء ذات الجانب الواحد ، وأصبح من الأمور العادية التصريح بان فى الدين جميع جوانب الشخصية مشتركة ، فالارادة والشعور والفكر ضرورية ، فهى عناصر لاتنفصل عن الدين . وفى ذلك يقول فليدرر « ان الفكر والارادة فى الدين ليست نهاية فى ذاتها كما هو الحال فى العلم والاخلاق ، ولكنها تابعة للشعور باعتباره مركز الاحساس الدينى »

وأهم التعاريف الحديثة هى تعاريف فرازر وسابتيير ووليم جيمس ، ويرى الأول أن الدين هو « استرضاء وتهدئة القوى التى أعلى من الانسان ، والتى يعتقد الانسان أنها تدير وتقود مجرى الطبيعة والحياة البشرية » ويرى سابتيير « أن الدين هو الصلة التى تدخل بها النفس المكروبة مع القوة الخفية وتشعر أنها ومصيرها يعتمدان عليها » ويرى وليم جيمس أن « الحياة الدينية تتكون من الاعتقاد بوجود نظام خفى وأن صالحنا العظيم يتوقف على تناسقنا مع هذا النظام ، وهذا الاعتقاد والنظام هما الدينية للروح »

نستنتج من التعاريف الحديثة ان الدين هو أحد أنواع النشاط أو شكل من أشكال السلوك . ومن الخطأ أن نسميه شعورا أو معتقدا خاصا

أما عن وظيفة الدين فى الحياة فقد شغل تأثيره جميع نواحى نشاط الانسان القديم . يولد الطفل فتباشر القبيلة عدة طقوس لكى يصبح الطفل سليلا لطوطم القبيلة وفردا منها . ولم تكن للانسان أية فكرة عن التناسل كنتيجة للاختلاط الجنسى ، لذلك أعتقد أن الولادة من الاسرار الآلهية . ومما يثبت ذلك أغلب القصص الميثولوجية التى وصلتنا عن الآلهة التى ولدت من أمهات عذارى . فهى برهان على جهل الانسان بالعلاقات الجنسية

اذا صار الطفل رجلا تزوج ولكن وفقا للاوامر الدينية المفروضة ، وقد اعتمدت الأسرة الاولى على العملات الطوطمية التى منعت الزواج الداخلى وأباحت الزواج الخارجى وبالتالى حددت الصلات الجنسية للافراد بعضهم ببعض

كذلك كان تأثير الدين فى حياة الانسان الاقتصادية عظيما خصوصا فيما يتعلق بالزراعة فقد اعتقد الانسان أن النباتات تنمو بفعل الأرواح فكان يقدم الضحايا لكى تنمو حاصلاته وتكثر

كان للدين أيضا شأن عظيم فى تطور القانون والخلق ، فقد أوجد آراء حقوق الملكية وقدسية الحياة البشرية ، وكان القاتل يعتبر مجسا يحرم على سائر أفراد القبيلة النظر اليه وكان المتاع يترك فى حماية الطقوس الدينية التى كان الانسان يظن أن لها من القوة السحرية مايجعل الشيء المراد الاحتفاظ به خطرا على أى شخص يمسه خلاف صاحبه

ننتقل الآن الى الناحية الثالثة وهى الناحية الفلسفية . يتوقف الغرض النهائى للدين على مقدار الرقى العقلى الذي أصابه المتدين . فالانسان الأول لجأ فى حل معضلات الوجود الى الاساطير والقصص الخرافية ثم انتقلت هذه الأساطير عن طريق الوراثة حتى أصبحت عقائد دينية ، كان يلقنها الكهنة ورؤساء الدين للشعب من غير تفسير . ولما قطع الانسان فى سبيل التفكير المعقول شوطا عظيما توصل إلى معرفة فكرة الألوهية والآلهة ثم الاله الواحد الأحد ، وفلسفة الوجود والعدم وطبيعة الخير والشر ، وغير ذلك من النقط الفلسفية التى كانت محصورة معرفتها فى طبقة الكهنة . وهنا ظهر علم اللاهوت وفلسفة الدين . فوجدت النظريات الفلسفية المختلفة عن أصل الله والعالم وكان اهم هذه النظريات نظرية التوحيد Theism وتعتقد بان هناك اله واحد خالق هذا العالم له شخصية مقدسة ذات وجود قائم بنفسه وتدافع عن شخصية الله وصفاته البشرية الأمر الذي يتنافى مع جلال الالوهية بان الاعتقاد فى الله أمر يتعلق بالفكر البشرى ولذلك يجب أن تكون أفكارنا بشرية الشكل

ونظرية الحلول Pantheism وتعتقد بأن كل شيء هو الله وان الله هو كل شيء ، وتنكر التمييز بين الله والعالم وتدافع عن وجهة نظرها قائلة ان الله هو الحياة فهو موجود أينما كانت

ولما جاء كونت رفض اللاهوت الا انه اعتقد بالدين وأراد أن يجعل عبادة البشرية تحل محل عبادة الله وهو لذلك يعتبر أول المنادين بالبشرية

والناحية الأخيرة هى الناحية التاريخية وتشمل مقدار التطور الذى طرأ على النواحى الثلاثة . فاذا نظرنا الى الدين من هذه الناحية وجدناه كالانواع الحية فى الطبيعة ، لم يخلق فجأة بل مضى متطورا فى خطى نشوئيه تدريجية ، حتى أن الديانات التى أتى بها مبشرون قد كونت على أساس كان بذاته نتاجا لخطى من النشوء والتدرج المستمر ، ولكن كيف نشأ الدين وكيف تطور ؟

أما عن النقطة الأولى فهناك نظريات عدة وضعت عن نشوء الدين ويرجع اختلاف هذه النظريات إلى اختلاف البيئات التى درست فيها عادات القبائل والشعوب الفطرية ، فقد وجه الباحثون جهودهم فى أواسط مختلفة وفى أوقات متغايرة ، فكان من ذلك النظريات المختلفة عن نشوء الدين

تعتبر نظرية تيلور عن نشوء الدين أول نظرية علمية مبنية على البحث العلمى وهى ترجع فى الاصل فى نشوء الدين إلى فكرة الانسان عن الروح التى نشأت عنها عبادة الموتى وهذه تدرجت فى مراتب ثلاث عبادة الجثة ثم عبادة الروح باعتبارها ستبعث ثم عبادة الروح باعتبارها خالدة

ولكن جيوفنز أعلن ان الأصل الأول للدين هو الطوطمية ، والطوطم غالبا حيوان أو نبات تجعل الجماعة له رمزاً واسماً عامين ، ويعتبرونه الههم أى موجدهم وحاميهم . ويعتقدون فضلا عن ذلك انهم من سلالته ، أى انهم أقارب بعضهم لبعض ، لذلك كان الطوطم أيضا رمزاً لقوة ارتباط الجماعة

ولم يكد يبزغ فجر القرن الحالى حتى أظهر فريزر ان الدين أحد أدوار السحر ، فعند ما كان عقل الانسان الفطري فى طفولته ، اعتقد ان لجميع القوى الطبيعية شخصية وارادة ، وعمد إلى استرضاء هذه القوى التى تتسلط على حياته ، فتملقها وعبدها وتودد اليها بمختلف الهدايا ، وعمد الى السحر يستعين به على تهدئتها والاستعانة بها

وعلى العموم فان هذه الفروض عن نشوء الدين تشترك فى شىء واحد هو ان فكرة الانسان الأول عن الله ابتدأت تخلع على الآلهة الأشكال البشرية والحيوانية ويسمى هذا بدور الوثنية . ومع توالى الزمن أخذ عدد الآلهة يتناقص ، فلم يعد الانسان يؤله الا القوي الكبري فى الكون وهذا دور الشرك أو تعدد الآلهة ، ثم تمشت الديانة شيئا فشيئا الى التوحيد . فلم يعد يرى الانسان الا الها واحداً ولكنه ظل الهاً أنتروبومورفيا « مزود بصفات بشرية وحيوانية » ثم أخذت تزول عنه أشكال الانسان والحيوان حتى أصبح لا شكل له الا أنه ظل إله انتروبوباتيا « مزود بالعواطف والاخلاق الانسانية » فكان العطف والحب والعدالة ضمن خصاله . وبمرور الزمن كانت الصفات والعيوب التى تكون الفردية تزول من هذا الاله الشخص الذى لا شكل له . فأصبح مجرداً لا عواطف له يتحرك فيه كل شىء ويحيا حياته

نشوء المدين

عاش الانسان قرونا عديدة لا يعرف غير حاجاته المادية ولا يشغله شيء غير التنازع على البقاء . عرف العمل قبل أن يعرف التفكير لأنه كان مضطراً إلى أن يلائم بيئته الطبيعية قبل أن تتوافر له القدرة أو أوقات الفراغ لكي يحاول فهمها

وعلى توالى الزمن ، ظهرت ملكة التفكير فى الانسان وعمادها الذاكرة ، فساعدته على تقليد لغة أسلافه وصفاتهم العقلية . وهنا نشأت اللغة ، وأخذ الانسان يمتاز عن الحيوان

كانت اللغة هى البذرة فى الثقافة التى هى النتاج الحى لتفاعل عقل مع آخر ، ومحصول الافكار والمشاعر ونواحى النشاط المشتركة بين العقلين . وبدون العمل لا تكون هناك ثقافة ولا تقدم فى الذكاء . ولما انتشرت الثقافة زادت فى تفوق الانسان على الحيوان حتى أصبحت ضمن التقاليد الاجتماعية التى اعتادها الانسان ببطء وثبات

توصل الانسان إلى المعرفة وأصبحت ضمن ضروریاته التى يستعين بها على العيش ، لانه كان مضطراً الى معرفة المحيط الذي يعيش فيه حتى يجد ملجأ يأوى اليه من الوحوش ، وطعاما يمنع به جوعه . الا ان عقل الانسان كان فى طفولته ، فلم يكن فى استطاعته معرفة كل ما يحيط به . وفى سعيه الى سد هذا النقص توصل الي السحر . وبمقتضاه اعتقد الانسان ان لجميع قوى الطبيعة شخصية وارادة مثل ما عنده من الشخصية الخاصة أو الارادة الذاتية من حيث كونه عاملا شاعرا ولم يكن الانسان يدرك الفرق بين الكيان الحى وغير الحى فكل ما يتحرك أمامه حى وعلى ذلك فهو مريد . فالشمس التى تشرق وتقطع السماء وتغرب والريح التى تهب والرعد القاصف . كلها فى عرفه شبيهة به فى غدوه ورواحه ونومه وبطشه

ولما كان الانسان بحكم حاجته الى حفظ ذاته ونوعه مدفوعا الى استرضاء هذه القوى التى تتسلط على حياته فقد تملقها وعبدها وتودد اليها بمختلف الهدايا كما يتودد الى رئيس قبيلته وذوى النفوذ فيها

خيل اليه أن هناك هالة من الارواح تحيط به ، فاضطرب ، وتولاه الفزع ، وعمد الى السحر يستعين به على استخدام هذه القوي ، وتوهم أنه اذا قلد المطر فى نزوله ، فالمطر لا محالة نازل ، وانه اذا جمع أفراد قبيلته وألبسهم أوراق الشجر ، اخضرت الارض . وذهب به الظن الى أبعد من هذا فتصور انه اذا أراد أن يؤذى أحدا يكرهه فعليه أن يعمد الى لباسه الذى كان يلبسه فيحرقه معتقدا انه اذا فعل ذلك أصاب عدوه ما أصاب الرداء

وبمرور الزمن تطورت الجماعات البشرية فبعد أن كانت تعتقد أن كل الارواح شريرة يجب التسيطر عليها من طريق السحر ، أخذ عامل الخوف يضعف شيئا فشيئا ويحل محله الخضوع والاحترام فحلت العبادة محل السحر ، وتطور الانسان فى هذه الادوار قائم على تطور فكرته عن الروح

ابتدأ الانسان ينظر الى الروح كشىء متعلق بالنفس يترك الجسد ثم يرجع اليه ، أو كشىء يفترق عنه ولكنه مع ذلك ضروري للانسان . وبعبارة أخري نظر الى الروح كعنصر غير عادي . وترجع هذه الفكرة الى رؤية شخصه فى أحلامه يعمل ويتحرك ، ورؤية الاشخاص الاخرين . واذا جرح أحد من أفراد القبيلة وذهب وعيه كان الانسان يخال ان روحه هجرت جسمه ، فكان يحاول أن يعيدها الى الجسم موجها صلواته ودعواته اليها ، راجيا اياها أن ترجع ، فلم يستطع التمييز بين غيابها الوقتى ورحيلها النهائى

كانت فكرة الموت فى الواقع غريبة عن عقلية الأنسان وما زال هناك كثير من الهمجيين لايعرفون أن الموت شىء طبيعى وضروري ، بل بالعكس ينظرون اليه كحادث غريب غير طبيعى ناتج عن مؤامرة الأعداء أو عن السحر . كان الانسان يعتقد أن الميت قد ذهبت روحه أو نفسه أو أى شىء آخر ، ولكن ذلك قد يرجع ثانيا إلى جسمه فى أي وقت . لهذا اهتم الانسان بحفظ جثة الميت وذلك بتركه عند مايموت فى كوخه أو مغارته حيث يبقى مع الأحياء من أسرته . ولكن نظرا لتألم الأحياء لوجودهم قرب جثة الميت ، كانوا يضعون الجثة خلف الشجر أو فى مكان آخر تكون فيه بعيدة عن أى ضرر. وكانت نظرة الأنسان الى الميت نظرة حب. فكان يقدم اليه الطعام ويعتنى به وخصوصا الجمجمة . ويسمى هذا الدور بعبادة الجثة

ثم انتقل الانسان الى الدور الثانى وهو الدفن أو مايشابهه ، حيث ابتدأ يخشى الميت ويهاب عودة الجثة أو الروح ، ولكى يتلافى شوكتها توصل الى حفر مكان ثم وضعها فيه وغطاها بطبقة من التراب . وكان يضع أحيانا قطعة كبيرة من الحجر عليها للتأكد من عدم عودتها . ولظنه أن الميت يستمر حيا فى قبره كما كان يعيش على الأرض، كان يزوده بالأسلحة والآلات والأطعمة وغيرها من الضروريات اللازمة لسكنه

لقد كانت الجثة تعيش فى الكوخ مع العائلة . ثم انتقلت الى المعيشة مع اجدادها بالقبر . ويسمى هذا الدور بعبادة الروح

وفى الدور الثالث حاول الانسان أن يبعد الروح بحيث لاتستطيع إقلاقه مطلقا ، فتوصل الى حرق الجثة ليمنعها من زيارة مساكن الأحياء . وفى هذا الدور أينعت فكرة الأنسان عن خلود الروح . ولاشك فى أنها تمتاز عن فكرة البعث التى كانت نتيجة الدور الثانى . ويسمى الدور الثالث بعبادة الروح الحقيقية

راينا مما تقدم أن الالهة كانت مجهولة . فلم يعبد ويقدس الأنسان حينذاك الا جثث أصدقائه وآبائه

وقد كان الله فى المبدأ روحا قوية مسالمة قادرة على المساعدة التى يرجى منها الكثير . ثم لما ارتقت الزعامة والملوكية ، كان لهما تأثير عظيم على فكرة الألوهية . كان الملك يعتبر الها ذا أهمية عظيمة بعد أن يموت . وكانت قوة الآلهة تزداد وفقا لزيادة قوة الملك أو الزعيم ، كما أن الملك الأقدم والأكبر غموضا يعتبر أكثر قوة فى مرتبة الآلهة

وهكذا نمت الآلهة شيئا فشيئا وأخذت تتحرر من الأرواح بسرعة عظيمة . وكان هذا التطور الارتقائى ينمو وفقا لنمو المعابد والرياسات الدينيه . وعلى ذلك كانت الآلهة فى نظر الانسان خلال هذا التطور كشىء غير مادي ، أقرب الى الروحية منها الى البشرية فى شكلها وطبيعتها . ولهذا ميزها بصفات القوة وجسامة الحجم وكثيرا ماماثلت فى الشمس والقمر والقوى الطبيعية . ولكن قوة هذه الآلهة لم تصل الى تعلم القدرة فى دور تعدد الآلهة . لأن التعدد يحدد من سلطة كل منها

كان الدين ، ولا يزال يعتمد على عناصر ثلاثة — المعابد — والأصنام — والكهنة — ومن المحتمل أن القبر كان أول صورة للمعبد لأن الميت كان يترك فى الكوخ الذى يقطنه حيا ، حيث يقدم اليه مايحتاجه الحى وتؤدى له فروض العبادة . فاستلزمت هذه الاكواخ بعض العناية . فكانت تزخرف ، ومن ثم أخذت تعظم تدريجيا . وكلما عظم المعبود زاد الانسان من الفن والمهارة فى بناء وزخرفة مسكنه ، حتى أصبحت عظمة المعبد تتوقف على عظمة الاله

أما الاوثان الأولى فلم تكن صورة للميت ، ولكنها كانت الجسم نفسه يحفظ أو يحنط . ثم أصبحت صورة تمثل الاله

وعندما نمت فكرة الألوهية ، وأعتاد الانسان النظر الى الوثن باعتباره ممثلا للاله ، كان من السهل الاكثار من هذه الاوثان فازداد الالتباس بين الآله وصورته ، أيهما الحقيقى وأيهما الصنو

بعد أن كان الحجر يوضع على القبر ليعوق الجثة عن القيام ، أصبح يمثل الجثة نفسها . وبعبارة أخرى يمثل الروح أو الاله . ثم أخذ الانسان يغير من وضع شكل الحجر حتى أصبح وثنا تقدم له الصلاة . ولما رسخت فكرة قدسية هذه الاحجار بعقلية الانسان . كان من الطبيعى تقديس الاحجار المشابهة للاحجار الاصلية باعتبار أنها مسكونة بروح أو اله ، ثم أتى على الانسان حين غمض عليه التمييز بين الحجر والروح ، والسلف والاله . وهكذا أصبح الحجر والروح متصلين ببعضهما. حتى أصبحت العطايا تقدم للحجر نفسه ولذلك عند ما استعمل الحجر المسطح للتضحية بالقربان لم يشعر المتعبدون أنفسهم بهذا الانتقال

والكهنة هم العنصر الثالث فى الدين الذى زاد من أهمية وقوة الآلهة . لان الكهنة هم الطبقة التى ينحصر عملها فى تعظيم واجلال الآلهة المعبودة

وللكهنوت أصلان . الاول له صفة الملكية Quazi—Royal والثانى له صفة الخدمة Quasi—Service

يرجع الاصل الاول للكهنوت الى اعتبار رئيس القبيلة كأبن أوممثل للروح اله القبيلة . له وحده الحق فى الاقتراب من الاله وتقديم العطايا . فاذا أراد فرد شيئا من الاله فلا بد لذلك من وساطة رئيس القبيلة ، لان الاخير قريب وصديق الروح المقدسة فهو يعرف أفكارها وعاداتها . ومن هنا كان هؤلاء الرؤساء كهنة بطبيعتهم . فهم مقدسون بحكم الوراثة ، لان هناك علاقة خاصة تربطهم وأولادهم بالهة القبيلة . فدماؤهم من دماء الآلهة

يستدل مما مضى على أن آلهة الجماعات الصغيرة أو الاسر فى أول أشكال الدين هى أسلافها الميتة . ويقوم رب العائلة بمهمة الكاهن ، يقترب من أرواح الاسرة أو آلهتها بالنيابة عن زوجاته وأولاده وأتباعه . ولما ارتقت القبيلة قويت مهمة الرياسة وأصبحت أرواح أو أسلاف الاسرة الملكة آلهة يمثلها الرئيس الموجود وأقاربه . ومن ذلك اتصلت السلطة الكهنوتية فى أغلب الاحوال بسلطة الملك أو الزعيم

ومن التقاليد التى رسخت على توالى الزمن ، عدم منح الزعيم أو الملك سلطة الحكم الا باحتفال يمثل فكرة الخلق كما تعتقدها الجماعة . فالملك أو الزعيم ينتسب للآلهة ولذلك يمنحه الشعب قوة الخلق لانها تعتبر ضرورية فى تأدية واجباته الملكية ، وفى الاحتفال المقدس يمثل الرئيس دور الخالق ، وذلك بممارسة عدة طقوس سحرية يخلق بها الطعام للرعية فى شكل نباتات أو حيوانات ، والقيام بعدة أعمال من شأنها حفظ المحاصيل والاغنام

وكان للنوع الثانى من الكهنوت صفة الخدمة Quari — Service ويرجع أصله فى أنه لما كانت العشيرة مضطرة لتقديم العطايا للأموات عينت الكهنة أو الخدم ليتحققوا من العطايا المقدسة . وهنا كان الاغنياء يقفون للقبر عينا لحفظ العطايا ولامداد الكاهن بمعاش او مرتب . وكان هذا النوع الكهنوتى وراثيا لضمان استمرار نظامه . ولذا كثيرا ما استمرت العبادة التى تؤدى بالقبر مئات السنين

وعلى توالى الزمن ظهرت الاحكام ، ونمت العادات والطقوس وأصبح الكهنة حفظة التقاليد المقدسة ، يعرفون وحدهم كيف يقتربون من الآلهة وفى امكانهم معرفه ما تخبىء الآلهة من سرور وحزن ! فبدونهم لايستطيع عابد أن يقترب من الآلهة ولذا أصبحت لهم أهمية فاقت غرض وجودهم

كان الانسان يرى أنه ليس هناك آلهة غير جثث أسلافه وأرواحهم ، ولم يكن الدين غير القيام بعدة طقوس وتقديم بعض العطايا لهذه الجثث أو الارواح . ثم احتاج الى عناصر عظيمة وآلهة مختلفه ، وأهم هذه الآلهة رب الزراعة

كانت فكرة دفن الميت ترمى الى حبس روحه أو جثته وذلك بغمرها بالأتربة ، ولكن لم يكن ذلك كافيا ليجعله على يقين من عدم ظهورها ، فكان يضع غالبا على القبر أو الأكمة حجراً ثقيلا . ومن عملية الدفن هذه بدأ حرث الارض ، وتعريض الارض السفلى للهواء . واستئصال النباتات غير الصالحة . وكل هذه المقدمات الاولى الضرورية للزراعة كانت عرضية . ولما كان من عادة الانسان تقديم الأطعمة والاشربة لموتاه بوضعها على القبور وكانت من نفس مايتناوله الأحياء أي لحوم الحيوانات والطيور المقتنصة ، والاسماك والفواكه والحبوب الناضجة كالفول والحنطة . الى هنا كان الانسان يزرع البذور بدون علم منه على أرض محروثة جديدة خالية من النباتات غير الصالحة ، ومسمدة بدماء لحوم الذبائح المقدمة ومن شأن هذه البذور سرعة النمو والنضوج فى أقل زمن ممكن مما استرعى انتباه الانسان . وبما أنه لايعرف شيئا عن البذور والسماد أو طبيعة الارض فقد استنتج بحسب ماتراءى له أن الروح الخفيفة القوية المقبورة سرت بما قدم لها من لحم وحبوب فردت هذه العطايا من نفس نوعها ، فضاعفت مقدار الحبوب مئات المرات . لاشك أن الانسان كان مبتهجا تحت مثل هذه الظروف بقطف واكل الحبوب التى نمت بالمصادفة على قبور موتاه . وعلى توالى الزمن وصل إلى توسيع نطاق الزراعة . وكانت الخطوة الاولى نحو هذا التطور ناتجة عن ملاحظة فلاح البذور والحبوب فى القبور الحديثة لاعلى جميع القبور . وكان يلوح له أنه حالما ينضج النبات الطبيعى تفنى قوة الروح . لذا وجد من المستحسن الاعتماد على الارواح الجديدة دائما للاغراض الزراعية وربما نشأ عن ذلك عادة إنشاء قبر جديد سنويا فى أكثر الاوقات الملائمة للزراعة . ولم يكن هذا القبر الجديد لشخص مات فى ذلك الوقت بالمصادفة ، بل لضحية مقصودة ذبحت لتمد الانسان بروح الزراعة « آلهة صناعية » ، ولكى تجعل الحنطة تنمو بسرعة وبمقدار عظيم . ثم توصل الانسان الى أنه اذا زاد فى حفر مساحة الارض فان الحبوب تنمو حول قبر الضحية المقدسة كما تنمو عليه . وعلى ذلك اتسع الحقل المزروع وزادت عملية الحرث التى يقوم بها الانسان الى اتساع الارض المحروثة فاصبحت قبرا من الوجهة النظرية وحقلا من الوجهة العملية

كانت الضحية فى الاصل ملكا أو رئيسا مقدساً أو ابنا أو ابنة ملك أي أحد أفراد السلالة المقدسة التى تجرى فى عروقها دماء الآلهة أو الملوك . ثم اقتصرت على أحد الافراد فاختص بالعناية وعومل كما تعامل الآلهة أو الملوك ثم استبدل بالشخص حيوان (Theanthropic)

عند ما ابتدأ الانسان يقدس بعض الحيوانات ظهر نظام الطولمية . ويتكون هذا النظام من مجموعة طقوس تسمى الطبو . تمارسها الجماعة لأن أفرادها يعتبرون أنفسهم أقارب بعضهم لبعض . ويعتقدون أنهم من سلالة الطوطم الذى يعتنقونه فهو مصدر هذه القرابة وهو غالبا حيوان أو نبات . تجعل له الجماعة رمزا واسماً عامين . فان كان الطوطم ذئبا فان كل أفراد العشيرة يعتقدون أنهم من أصل ذئب وعلى ذلك ففيهم بعض خواص الذئب

يعتبر الطوطم إله القبيلة أى موجدها وحاميها ، فهو مبدأ الجماعة الوحيد وقوة ارتباطها الدائمة وروحها العظيمة . وهو القوة الاجتماعية الموروثة فى الجماعة ولذلك فان النظام الطوطمى ساعد الانسان الفطرى على أن يعيش فى جماعات منظمة ينذر فيها القتل والسرقة ، بعيدة عن الفوضى والفساد . واعتمدت الأسرة الاولى على الصلات الطوطمية التى منعت الزواج الداخلى وأباحت الزواج الخارجى وبالتالى حددت الصلات الجنسية للافراد بعضهم ببعض

وكذلك اعتمدت القوانين الفطرية على النظام الطوطمى فكان القاتل يعد نجسا يحرم على سائر أفراد القبيلة النظر اليه ، كما كانت أثمن الممتلكات تترك تحت حماية طقوس الطبو عند غياب صاحبها . فاذا رغب إنسان فى حفظ ملابسه أو منزله أو طعامه فما عليه إلا أن يجرى طقوس الطبو عليها وبذلك تصبح فى أمان

كان تأثير الطوطمية عظيما فى تقوية الروابط الاجتماعية وبعبارة أخرى فى خدمة المدنية وتقدمها ، فهو أصل التعاون بين أفراد الجماعة والدافع على تضحيتهم بالمنفعة الشخصية فى سبيل منفعة الجميع ، والافراد الخاضعون لطوطم واحد يعتبرون أنفسهم أقارب مستعدين لخدمة بعضهم بعضا حين الحاجة . والصلة الطوطمية أقوى من الصلة الدموية . لأن الاولى أوجدت الشعور بالتضامن الاجتماعى وبالمسئولية المشتركة فكل فرد مسئول حتى إذا احتاج الامر للتضحية بحياته للانتقام إذا أصيب بقية الأفراد بضرر ، كأن هذا الضرر وقع عليه

فى الواقع أنه كان لنظام الطوطمية شأن عظيم فى تطور الجماعات ، فقد أوجد آراء حقوق الملكية وقدسية الحياة البشرية وعقدة الزواج

ظل النظام الطوطمى شائعا عند ما كان الانسان يعيش بالصيد والرعى ، فلما عرف الزراعة والتدجين اقتضى ذلك إقامة الانسان بمكان واحد لايتحول عنه فساعد ذلك على اختفاء الروابط الطوطمية وانتقال القبيلة إلى نظام التوطن ، فأصبحت مرتبطة بقطعة من الارض ، فحلت الرابطة السياسية محل الرابطة الدينية ، إلا أن الزراعة أوجدت الثروة الثابتة ، وهذه ساعدت على وجود هيئة اجتماعية منظمة تتولى إدارة هذه الثروة . ومن ثم وجد رئيس يجمع بين الوظيفة الدينية والسياسية ووجد نظام للكهنة وأوقاف للمعابد وصار الدين عقائد ثابتة لاتتغير

الديانة المصرية القديمة

يعتبر الدين أهم عناصر الحضارة المصرية ولم يخطىء هيرودوت حينما قال « المصريون قوم يخافون الله أكثر من أى شعب آخر » ولا غرو فى أنه لم يكن هناك أقوي من الدين فى حياة المصرى القديم ، لقد شغل تأثيره جميع نواحى النشاط حيث غذى خيال الانسان بما قدمه من صور عن العالم . وحكمه بالمخاوف التى أوجدها ، وكان مرشداً لتصرفاته ، وتقويما لزمنه بما نظمه من أعياد ، وكذلك أوجدت عاداته الخارجية التعليم وكانت الدافع نحو التطور التدريجى للفن والادب والعلم

من الراجح أن عبادة الاسلاف كانت أول مظاهر الدين عند قدماء المصريين ، وعند ما ارتقى التفكير المصرى مسح على هذه العبادة شكلا روحياً — كانت عبادة المومياء شائعة فى مصر سواء كانت لقريب مات منذ زمن أو لملك بعيد القدم لذلك كان الاله غالبا هو الملك الميت ، والملك هو الاله الحى ، وقد ظل المصريون يحتفظون بأجساد موتاهم ويعبدونها تحت عناية الكهنة ،متخذين لذلك مراسيم مختلفة لا حصر لها

والصبغة الاساسية لسواد الالهة المصرية انها كانت آلهة محلية بحتة ، فكل مديرية وكل مدينة كان لها آلهتها . واهمية الاله تتبع أهمية المدينة التى يعبد فيها

كانت الالهة فى الغالب تكون ثالوثا « زوج وزوجة وولد » فاذا مات الاثنان الاولان بقى الثالث واتخذ له من المعبودات الاخري زوجة وأنتج منها ولدا وهلم جرا ، وبذلك صارت سلطة الاله منتقلة من معبود الى آخر حتى لا تضيع . وعلى كثير من الآثار عبارة صريحة تدل على ذلك وهى « هو يخلق أعضاءه وكل عضو منها اله » وبهذه الطريقة كثر عدد الآلهة

وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض . وكان المفترض أنها تعمل أحيانا معاً تبعاً للظروف واختصاصاتها ، فكان الناس يدعونها معاً أو يخلطون بين أسمائها ، غير انه لم تكن كثرة الآلهة دليلا على أنها كانت موضع عبادة من الجميع ، لانه لم يكن لكثير منها وجود الا فى الاساطير ، كان المصريون يعتقدون بقلة الفروق بين البشرية والالوهية ، لذلك كانت بشرية جميع الآلهة من الامور العادية جدا عند الكهنة والشعب

كانت مهمة كل معبود من المعبودات المحلية تنحصر فى الأصل فى حماية بلدته ، فلا سلطان له خارج حدودها ، بيد أننا نجد ان طائفة كبيرة من هذه المعبودات كانت لها مزايا خاصة ، ما لبث أن مدت نفوذها وراء مناطقها ، مثال ذلك ، أن آمون ، اله طيبة ، كان أيضا إله الخصب

والنماء فى مصر كلها . والمعبود « من » إله فقط ، كان من مميزاته حماية أسراب الماشية والسبل والقوافل ، وكذلك المعبودة « سخت » آلهة منف تعتبر آلهة الحرب التى تنكل بالعدو وتسحقه والآلهة « هاتور » معبودة « دندرة » كانت تمثل آلهة الحب والفرح

وفى كثير من الأحيان عزيت لهذه الآلهة المحلية علاقات بقوى الطبيعة ، وبخاصة الاجرام السماوية ، فالمعبود توت ، إله الأشمونين كان يعتبر إله القمر ، وكان الاعتقاد السائد انه هو الذى حدد فصول السنة ، ووضع نظام الطبيعة ، ولهذا اعتبر أيضا مخترع الكتابة واللغة ، وخالق المواقيت والمقاييس ، وإله العلم والعرفان

وهناك ظاهرة لها أهميتها فى الديانة المصرية القديمة وهى أن أغلب حيوانات مصر كانت مقدسة بالنسبة لكل إله ، وكان الحيوان المختار كرمز يمتاز ببعض مظاهر وظيفة الاله أو يشبهه . فكان الصقر رمزاً لاله الشمس ، وكانت البقرة مقدسة للآلهة هاتور ، والقط للآلهة باست ، والضفدع للاله هكت . وكانت الالهة تمثل أحيانا بالاجسام البشرية ورأس حيوانها المقدس ، وتمثل أحيانا بالحيوان كله . وقد نشأ هذا التقديس عن العقيدة الطوطمية التى سادت جميع عصور ما قبل التاريخ ، فرغم أن كثيرا من المدن كانت تقوم بعبادة الاسلاف ، إلا أنها ظلت تعتقد فى انتسابها إلى أحد الحيوانات كالصقر أو العقرب ، فكانت فى أول الأمر تستأنس وتدلل وتحترم هذه الحيوانات ، لتضحى بها على قبور أسلافها ، ثم تطورت مكانة هذه الحيوانات بسبب فوضى الأفكار وانتقلت من التقديس إلى التأليه ، حتى أصبحت تشارك أرواح الأسلاف والالهة الناشئة عنهم ، فى العبادات المقدسة التى تؤدي اليهم

وكان هناك نوع ثالث من المخلوقات المقدسة أو شبه المقدسة ، وهى آلهة العناصر أى آلهة الطبيعة وأهم هذه الالهة الشمس « رع » ومنها شو وتفنوت ونوت وسب ، الا أنه لم يكن لها دور مهم فى عبادة الشعب ، غير انها لعبت دوراً عظيما فى جميع الأساطير المتعلقة بخلق العالم

وتتلخص أسطورة المصريين عن نشوء العالم فى أن الكون كان فى أول الامر لجة من المياه يحيط بها الظلام وكانت الشمس مختفية فى وسطها . ثم ظهرت الشمس فخرجت الارض والسماء من الماء مختلطين بعضهما ببعض وممتدة أحداهما على الاخرى ، فكاو رع الاله الاول ، وقد صدرت منه اشارة فتولد عنها زوج من الالهة ، وهما شو وتفنوت فدخلا فيما بين الارض والسماء ، وفتقا رتقهما ، ثم رفعا السماء على أذرعهما وأبقاها معلقة فى الفراغ ، وبذلك ظهر زوج ثان من الالهة وهما سيبو أي الارض ونوت أى السماء

وكانت الدنيا التى أوجدها هؤلاء الالهة الخمسة أشبه بصندوق رباعى الشكل يكتنفه الماء ، قاعدته الارض وغطاؤه السماء وجدرانه الجبال الشامخة التى تتكىء عليها السماء . ويجري نهر عظيم على طول هذه الجدران تحت السقف السماوى بقليل ويتراءى هذا النهر للأبصار فى جهة الجنوب ثم يسيل فيما بين الجبال وينساب فى مجرى طويل تحت الارض ويسبح فيه على الدوام زورق فيه الشمس ، ويخرج هذا الزورق فى كل صباح من المشرق الى الجنوب ، وترسل الشمس الانوار إلى مصر وتدخل كل مساء فى الجبل من جهة الغرب ، ثم تولد من الارض والسماء أربعة آلهة ، أولهما أوزوريس وايزيس ، اتما تكوين العالم وجاءا بالحضارة والمدنية ، وثانيهما سيت ونفتيس ، أتيا بالشر والموت

كان المصريون يرون الحياة بعد الموت أهم بكثير من الحياة الدنيوية ، حتى انهم كانوا يقومون بمعدات لا حصر لها نحو أمواتهم ، مشيدين لذلك مقابر خالدة على غرار مساكنهم حيث تقضى المومياء الجزء الاعظم من وجودها ، وذلك لانهم كانوا يعتقدون أن لكل انسان قرينا « كا » فاذا مات يخلفه قرينه فى حياته ، وكان القبر يدعى قديما بيت القرين فاذا انفصلت الروح عن الجسد تلحق بأوزوريس تحت الارض حيث تغيب الشمس كل يوم

هناك يتصدر أوزوريس فى محكمته وقد أحاط به الالهة ، فيؤتى بالروح أمامهم ، تحاسب عما اقترفته فى الحياة ، وتوزن أعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب ، فالنفس الشريرة تعذب قرونا ثم تهلك والنفس الطيبة تطير أحقابا ، وبعد محن كثيرة تنضم الى زمرة الارباب وتفنى فيهم

وتستطيع الروح فى خلال هذه المدة الدخول فى الجسد لتستريح ، ولذا اقتضى أن يظل الجسم سليما ، ومن أجل ذلك كان التحنيط ، وكانت التماثيل الكثيرة المملوء بها القبر ، حتى انه فى حالة فناء المومياء يمكن الروح أن تجد مأوى فيها

وكان يوضع بجانب المومياء كتاب الموتى ، وهو أعظم وأول كتاب عرفه التاريخ ويحوى على ماينبغى للروح أن تقوله فى العالم الثانى دفاعا عن نفسها أمام محكمة أوزوريس ، إلا أن ترجمة هذا الكتاب من الصعوبة بمكان . والفقرات التى ترجمت بدقة منه على درجة رائعة من الجمال اذا قورنت بأقوال الأديان الاخرى ، ولكن الجزء الكبير من الكتاب مبهم ، والقليل الذى تمكنا من معرفته عن نفسية المصريين الدينية يعتبر أشوق جانب فى دراسة الديانة المصرية ، ومع ذلك فليس فيه الكفاية لمن يريد تنسيقه وفق نظام محدود

قلنا أن الأموات كانت تحت حماية أوزوريس ولكن سلطته لم تكن مطلقة فى أول الأمر ،

فقد كان كوكاريس اله الموتى بمنفيس وروب — وات باسيوط ، إلا أن هذه الآلهة أخذت تفسح مكانها لأوزوريس على توالى الزمن

كان أوزوريس أعظم الالهة على الاطلاق، وكانت ديانته عامة فى وادى النيل، وقد كان على الارجح ملكا قديما جدا تحول الى اله محلى ببلدة نيس أوتينيس ، ولما كان مينا ينتسب لهذه المدينة فان حكمه لم يقتصر على توحيد مصر فحسب بل على توحيد آلهتها أيضا ، وبعبارة أخرى عظم أوزوريس بارتقاء مينا ، وتتلخص أهم أسطورة عنه ، والتى كان يعتقد بها أغلب المصريون ، أنه كان متزوجا باخته ايزيس وحاكما على وادى النيل ، أوجد جميع الاختراعات التى جعلت الانسان قادرا على احتمال الحياة . نظم حقوق الملكية ورتب العائلة ووضع الشرائع وعلم فنون الصناعة والزراعة ثم قتله أخوه سيت أوتيفون كما سماه الاغريق ، وقطع جثته الى أشلاء القاها بانحاء مصر المختلفة ، فجمعتها ايزيس وحنطتها فكانت أول مومياء ، ثم تولى سيت مكانه ، ولكن لم يمض عليه سنون قليلة حتى هاجمه ابن أخيه هورس واضطره لان يتنازل له عن أرض الدلتا وأن يبقى لنفسه الوادى الكائن فيما بين ضواحى منف ومدينة اسوان ، ومن ذلك الوقت لم يبق العالم دولة واحدة . ولما انقسمت مصر الى مملكتين بارحها أولياء سيت واشياعه وانتشروا فى البلاد المحيطة بها ، ثم حكم بعد هورس عائلتان الهيتان من طبقة ثانية ، وبعد ذلك صعد الاله الى السماء وقام الناس مقامهم فى ولاية الأحكام ، فجاء مينا وأسس أول دولة بشرية

وفى قصة أوزوريس وايزيس تفسير لكثير مظاهر الحياة كما تصورها قدماء المصريين ، فاوزوريس هو اله العالم الأخروي الاسفل واله المحصول والنهر واهب الحياة والخصب . يرمز فى موته وبعثه الى الزرع الذى تدفن بذرته فى الارض ثم تنمو وتحصد ، ويفسرون تقطيع جسم أوزوريس ودفن اجزائه فى أنحاء البلاد ببعثرة الحبوب وزرعها فى التربة ، أما سيت اله الظلام فيرمز أيضا الى الصحراء القاحلة عدوة الخصب والنماء ، وصراعه مع ايزيس هو الصراع بين الخير والشر

والان بعد أن ألممنا بنشوء وتطور الديانة المصرية نلقى نظرة سريعة على الصلة العظيمة التى كانت بينها وبين السياسة

كان رع الها محليا بعين شمس ، فلما اتحدت مصر سياسيا ، أصبح رع أعظم الآلهة وظل ملقبا فى أثناء الاسر الست القديمة بأبى الالهة جميعا ، وفى الاسرة الرابعة وصل الى درجة عظيمة من الاهمية والنفوذ أصبح معها ملوك الأسرة الرابعة ينسبون انفسهم اليه ، كما يتجلى ذلك فى اسمائهم مثل خفرع ومنقرع ، وذلك بالطبع اشارة الى الطبقة الالهية التى كان يتمتع بها ملوك مصر

وظل نفوذ رع عظيما فى الاسرة الخامسة ثم سادت الفوضى بعد الاسرة السادسة وخرج

امراء الاقاليم على سلطة الملك ، واستقلوا بالشأن فى أقاليمهم ، مما أثر فى مركز رع . واستمر الحال على ذلك حتى الأسرة الحادية عشرة ، التى أصبح فيها امراء طيبة ملوكا لمصر ، فصار آمون اله طيبة المحلى أقوى الهة مصر وأكثرهم مجدا . وظلت عظمته فى ازدياد حتى تولى الملك فى عهد الاسرة الثامنة عشر امينوفيس الرابع

كان امينوفيس الرابع شديد الولع بالمسائل الفلسفية والدينية . أراد أن يعتنق المصريون دينا واحدا . والها واحدا هو الشمس . أوهو ما وراء الشمس من قوة هائلة مختفية عن الأنظار . إلا أن الدافع الحقيقى الذى جعل امنحتب الرابع يقوم بتلك الثورة الدينية هو رغبته فى التخلص من نفوذ كهنة امون الذين أخذ نفوذهم يطغى على نفوذ الفراعنة . حتى أصبحت الاموال التى تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تؤثر على الايراد الذى يجبى لخزانة الدولة

يضاف الى ذلك أن جعل مصر امبراطورية يمتد حكمها الى شعوب مختلفة لايلائمها أن تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتتعدد المعبودات . بل الذى يلائمها ويوحد بينها جميعا هو أن يكون لها معتقد دينى واحد ومعبود واحد . ولم يكن هذا المعبود فى نظر امينوفيس الرابع غير القوة التى وراء الشمس والتى يصدر عنها النور والحرارة والحياة الى جميع أنحاء العالم . فهى لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب جميعا

حاول أمينوفيس أن يقطع كل صلة تربطه بالعبادة القديمة فغير اسمه من أمينوفيس إلى اخناتون ، ومسح اسم أبيه من المعابد المصرية حتى لايرى كلمة آمون على جدرانه ، كما أنه جعل يكافىء كل من اتبع دينه من ضباط الجيش وموظفى الحكومة بشتى الهدايا ويخلع عليهم أرفع الرتب

فشلت الثورة الدينية التى قام بها اخناتون فى نهاية الامر لسياسة العنف والشدة التى اتبعها ولم تكن العقول مستعدة لقبولها ، كما ان هذه الثورة لم ترتكز الا على شخص الملك . وعلى ذلك فلم تذهب سدى . فقد كان لها أثر كبير فى نبذ القديم فى الدين . وتوخى الحرية فى الاعتقاد مما ساعد على عودة أهمية رع ولو أنه كان أقل شأنا من آمون باعتبارهما إله واحد « آمون — رع » الا أن اسم رع كان يتبع باسم أمون لا يسبقه

وفى أواخر عهد الدولة الحديثة حينما كانت البلاد المصرية على اتصال بغربى آسيا ، دخل البلاد طائفة كبيرة من الآلهة الاجنبية وقد وجدوا مكاناً سهلا وصدراً رحبا من الاجانب الذين كانوا يقطنون مصر إذ ذاك بل من المصريين انفسهم أيضا ، ومن أهم هذه الآلهة بعل الذى اعتبر محل سيت ، وعبده فى شكل الحيوان الهائل الذي يمثل ذلك المعبود . وعند ما أخذت عرى المودة بين مصر وسوريا وفلسطين فى الانحلال تدريجيا تدهورت عبادة الاله سيت لانه كان ولى الاسيويين

واعتبره المصريون حامى أعدائهم ، ولم يقتصر الامر على ذلك بل أخذت الكهنة تصوره بشكل بارز الدور المعزو اليه فى قصة أوزوريس وأصبح يعتبر فى نظرهم أساس كل شر ، فانه هو الذى ذبح أوزوريس . واشترك فى نضال عنيف مع هورس المنتقم لأبيه ومن ثم أصبح خصم إله الشمس . وممثل الظلام ورب القحط والصحراء والمهلك لكل شىء حى ، وكذلك صار عدوا لكل خير ، وشيطانا بين الآلهة المصرية ، ثم انتهى الامر باخراجه من بين المعبودات المصرية فبطلت عبادته ومحى اسمه وصورته أينما وجدا

وكان إبعاد سيت من بين المعبودات المصرية آخر مظهر من مظاهر التحمس عند قدماء المصريين للمحافظة على دياناتهم التى كانت وقتئذ فى النزع الأخير ، إذ بانحطاط شأن طيبة حاضرة البلاد تدريجا بعد طرد ملوك النوبة ، أخذت شهرة أمون تتلاشى باستمرار ، ثم انتقل مقر الملك إلى الشمال وتحول معه كذلك محور سياسة البلاد فنتج عن ذلك أن آلهة الدلتا المحلية أمثال المعبودة « نيت » الهة صا الحجر وباستت معبودة بوبسطه والمعبود « انوبيس » وبخاصة الاله اوزوريس وأسرته كل هؤلاء أخذت تعظم مكانتهم ويكبر شأنهم باستمرار

وإن ماذكرناه عن ديانة قدماء المصريين يوحى إلى القارىء بأنهم لم يعرفوا التوحيد قط . والحقيقة أنهم اعتقدوا أن هناك إلهاً واحدا عظيما ولكنهم عجزوا عن وصفه أو عن تعيين مكانه وذلك لأن العقل الانسانى لم يكن يستطيع التفكير فى أى شىء مجرداً عن فكرة الزمان والمكان ولذلك كانت فكرة الآلهة المحلية وآلهة العناصر ملائمة لطبيعة العقل الانسانى

تثبت أغلب النصوص الدينية التى وصلتنا من مصر القديمة أنه كان للمصريين فكرة سامية عن الله ، وقد أطلقوا عليه كلمة نيتر ، وكانت هذه الكلمة تعبر عن نفس الفكرة التى تقول بها اديان التوحيد ، كانت تعبر عن القوة التى تسير كل شىء ، لقد كانت فكرتهم خالية من أى تجسد إنسانى لله

والواقع أن المصريين ابتدأوا منذ عصر الأسرات يكونون فكرة ضعيفة عن خالق عظيم هو الذى سموه على الأرجح « بوتى » والذى كان يختلف اختلافا عظيما عن الآلهة المحلية وعن كل المخلوقات التى اعتبرت آلهة . اعتقدوا أنه قادر ، خالد ، عادل ، بار ، ولكنهم شعروا أنه عظيم جداً وعلى مدى بعيد من هذا العالم لدرجة يضعف بجانبها اهتمامه باقدار الناس . لذلك كان الوصول اليه ميسورا بمعونة آلهة القرية أو القبيلة لأنها كانت صديقة الناس وأقرب منهم إلى الاله العظيم

وفى كثير من أناشيد المصريين الدينية أقوال صريحة تبرهن على توحيدهم ، فمنها ضمن نشيد للاله رع . « أنت الاله الواحد الذى وجد منذ الخليقة » و « أنت الواحد الأحد » وضمن نشيد لآمون رع « أيها الواحد خالق كل شىء » و « يا كبير الآلهة الواحد الأحد الذى لاثانى له »

و « الملك الواحد بين الآلهة » ومنها « هو الموجد لكل مايكون أما مالم يكن فهو فى مكنون علمه » ومنها « الأزلى الذي لاحد له » ومنها « لاتدركه الأبصار ، سميع لمن يتضرع اليه »

ولو أن مصر ظلت بعيدة عن الانقسامات الداخلية ودخول العناصر الأجنبية لبلغت الوحدانية فيها مابلغته فى الأديان الجديدة الناشئة ، ولكن الدين كان فى مصر مرتبطا بالسياسة فلما ضعفت الوحدة السياسية ضعفت الآلهة وكثرت السحرة وحلت الخرافات محل الدين ، ولكن العقيدة المصرية التى كونتها آلاف السنين لم تذهب سدى فقد انتقل هذا التراث الى الديانة اليهودية ومنها إلى باقى الأديان

اليهودية

يرجع أصل اليهود الى الجنس السامى نشأوا بكلدة فى الصحراء فكانوا يعيشون عيشة البدو، يكونون قبائل يتزعمها أكبرهم سنا وارجحهم عقلا ، ويبتدى تاريخ اليهود كما يقول علماء التوراة منذ ولادة ابراهيم «٢٠٠٠ ق. م» وكانت مدينة أور مسقط رأسه وهى كائنة بسومر، وهو الاسم الذى كان يطلق على جزء كبير من الاراضى البابلية

رحل ابراهيم متزعما الاسرائليين الى فلسطين وكان يقطنها حينذاك الكنعانيون ، وهناك اضطر الاسرائيليون الى نبذ العيشة البدوية واحتاجوا الى تغيير نظامهم الاجتماعى الذى نما فى الصحراء حتى يصلح لهم فى بيئتهم الزراعية التجارية الجديدة ، وعلى توالى الزمن امتزجوا بالكنعانيين امتزاجا تاما

ظل اليهود مقيمين بفلسطين حتى قام بعض الآريين من أوربا الوسطى ، وكانوا شديدى البأس يعرفون صناعة الحديد . فاغاروا على كريت وغيرها « ١٦٥٧ ق. م » مما أدي الى اضطراب العالم الاسيوى فدفع ذلك بعض شعوبه نحو وادى النيل . وكان أغلب النازحين الى مصر الهكسوس واليهود . هذا وقد دفعت أيضا المجاعات التى كانت تحدث بفلسطين بين حين وآخر الى نزوح كثير من اليهود الى وادى النيل

أقام الاسرائيليون بمصر تحت حماية الهكسوس فلما طرد المصريون الهكسوس من مصر (١٦٢٠ — ١٥٧٣ ق.م) قاس الاسرائيليون كثيراً على يد الفراعنة وظلوا يسامون سوء العذاب حتى ظهر موسى فخرجوا برياسته من مصر فى عهد امينوفيس الثانى (١٤٤٧ — ١٤٢٠ ق.م)

وبعد عناء عظيم استقر الاسرائيليون بفلسطين ، وأصبحوا يكونون مملكة قوية (١٠٠٠ ق.م) تحت زعامة شاول وداود وسليمان وبنى الاخير المعبد الاسرائيلى العظيم بأورشليم ، ثم ضعف شأنهم فانقسموا قسمين ، مملكة اسرائيل فى الشمال ، ومملكة يهوذا فى الجنوب، فاضعفهم هذا الانقسام ومنذ ذلك الوقت اخذوا يشقون بين مصائب الفتح والأسر تحت غزوات البابليين والفرس وغيرهم حتى هدم هادريان سنة ٧٠ ميلادية أورشليم ومعبدها . ومنذ ذلك الوقت تفرق الاسرائيليون

وكانت ديانتهم الاصلية خليطا من الوثنية تشمل عدة أشكال من الآلهة وتعتمد كباقى الأديان على عبادة الأسلاف العائلية والعشيرية ، كان بعض الآلهة على شكل حيوانات والبعض يشبه قليلا أو كثيرا الانسان، ولكن الأغلبية كانت تعبد انصابا فى صورة أحجار وأشجار ومخروطات خشبية مقدسة

ومعظم هذه الالهة سامية الشكل مألوفة لبنى اسرائيل وجيرانهم واقربائهم، وكانت عبادة الاسرائيليين فى أول الأمر تشبه عبادة قدماء المصريين والبابليين ، إلا أنها أخذت تتغير شيئا فشيئا فلما طردوا من مصر أدى ذلك الى تفضيل بعض الالهة على البعض الاخر . واختص الاسرائيليون أخيرا بيهوا أحد هذه الالهة واصبح الههم الجنسى

استمد اليهود عقيدتهم من مصر وبابل وظلوا مشتتين فلم يعرفوا الوحدة ، ولذلك استعاضوا عنها بجمع أخبار ملوكهم وانبيائهم وما وعوه من الآداب الدينية المصرية والبابلية ، فكانت هذه كلها مصدراً للتوراة الذى لم يكن له وجود قبل عودة الاسرائيليين من بابل (٥٣٩ ق. م) الى فلسطين وبناء معبدهم من جديد

ولما كان اليهود قبائل رحالة ، كثر انتقالها بين مصر وبابل ، واستمدوا عقيدتهم من هاتين المملكتين ، واضطروا الى ايجاد وسيلة لوحدتهم ، فتكون مع الزمن أدبهم الممثل فى التوراة والذى كان طريقا لاتحادهم وسبيلا لوجودهم السياسى ، لذلك كان التوراة هو الذى كون اليهود . لا اليهود هم الذين كونوه

كانت بالتوراة أفكار تختلف عن أفكار المعتقدين به . افكار ترمى الى القوة والمعونة . كتب على اليهود التعلق بها خلال قرون من الشدة والمجازفة والظلم . ولم يكن لليهود ملك أومعبد فلم تربطهم الا كلمات مدونة

وكان للثقافة المصرية أكبر نصيب فى تكييف ثقافة العبرانيين الممثلة فى التوراة والتى ابتدات تتكون منذ ان استقر يوسف بمصر فتزوج بنت بوتوفيرة رئيس كهنة هليو بوليس . ومن المعروف أن الجزء الأوفر من أدبيات المصريين الدينية نشأ فى هذه المدينة فاستطاع اليهود أن يستمدوا كثيرا من تعاليمهم من ديانة قدماء المصريين . فالعجل الذهبى الذى عبده اليهود باعتباره يمثل يهوا كان أصله عجل آبيس الذى كان يعبده المصريون . وفكرة الشيطان « سيت المصرى » هى فكرة مصرية لان الرب سيت كان عدو الرب « هورس » والظاهر أن العبرانيين أخذوا اللفظ بتحريف طفيف كما أخذوا المعنى . أما أغلب عقيدة اليهود . فقد استمدوها من عقيدة اخناتون الذى عاصروه . كان اخناتون أول من قال بان اتون هو الخالق والمنظم والحاكم للعالم أجمع لالمصر وحدها . ويشبه اتون اله العبرانيين شبها عجيبا . وكثير من عبارات التوراة وجدت فى اثار اخناتون أى صلواته معنى وحرفا

ويزعم ويجال أن اخناتون هو الذى كتب مزمور ١٠٤ فى التوراة . وهو فى مجمله ينطبق كل الانطباق على الفلسفة الدينية عند هذا الملك . ففى هذا المزمور كما فى رأى اخناتون ان الله محبه

ثم يزعم ويجال أيضا أن هذا الملك حرم صناعة التماثيل والتعبد لها

ويمكن رد كثير من الفكرات التى تضمنها التوراة الى أصولها المصرية القديمة . ولا يقتصر الامر على الفكرة فقط ولكن أسلوب التعبير عنها أيضا مأخوذ من قدماء المصريين . وحديثا اكتشف العلماء أن كتاب أمينيموب فى فلسفة الاخلاق هو الاصل الذى نقل عنه جزء كامل من سفر الامثال . وقد وجدوا أن النقل فى بعض الأحوال يكاد يكون حرفيا . كذلك اكتشف المسيو ليفر سنة ١٩٢٠ م . معبدا للاله توت فى منطقة هرموبوليس تحتوى نقوشه الهيروغليفية أمثالا لها شبه عجيب بأمثال سليمان الحكيم وهى تشبه من جهة أخرى أمثال قاقمنه وفتاح وحتب وآنى

كذلك أثبت اليوت سميث أن قصة الطوفان المذكورة فى التوراة لها شبه بما وجد فى مقبرة سيتى الاول من نقوش تروي كيف هلك البشر ليعدوا أكسير الحياة للملك حتى يصل الى الخلود . وسبب هلاكهم هى خطاياهم وعصيانهم . اختلطت قصة ذبح البشر مع قصة فيضان النيل . وشبهوا احمرار مياه الفيضان بدماء القتلى . وانتشرت عناصر القصة الى البلاد الاجنبية ودخلها خلط ومزج . فاصبح هلاك البشر سببه فيضان الماء كما أن اثم العصيان الذى اهلك البشر أصبح المبدأ الذي يسميه اللاهوتيون « بالخطيئة الاصلية » وتظهر هذه الفكرة بشكل اخر فى سفر التكوين من التوراة

والسفينة المقدسة الجديدة التى ذكرها موسى ليست إلا نموذجا من السفن المصرية التى نجدها بالمقصورة التى كان يحفظ فيها تمثال الاله . فالسفن التى استعملها بنو اسرائيل للعبادة فى الصحراء هى تلك السفن المقدسة التى كانت تستعمل فى النيل عند قدماء المصريين

ومن الاشياء التى حرمها المصريون بدافع الدين . الخنزير فكان فى نظرهم نجسا وكان من قوانينهم لا يختلط رعاة الخنازير بالناس أو يتعاملوا معهم . وانتقلت هذه العقيدة الى الاسرائيليين فاعتبروا الخنزير حيوانا نجسا وحرموا أكل لحمه

كذلك استعمل اليهود التحنيط كما استعمله المصريون وقد ذكر التوراة أن يوسف حنط جثة ابيه يعقوب . وكان المصريون يحتقرون فئة المحنطين فقلدهم اليهود واعتبروا أن من يغسل ميتا يصبح نجسا سبعة أيام لايصلى فيها

اذا انتقلنا من تعاليم الدين إلى أمكنة العبادة وجدنا أن معابد الاسرائيليين لم تختلف عن معابد المصريين ، فقد قسمت مثلها إلى ثلاثة أقسام المذبح والمحراب والمكان المقدس

وكانت بابل أيضا مصدرا لأكثر القصص الشعبية والروايات الدينية التى كان يتناقلها العبرانيون .

وقد وفق علماء الآثار حديثاً إلى اكتشاف كثير من الآثار التى تثبت الصلة القوية بين الآداب الدينية البابلية والعبرانية ، ومن أهم المكتشفات التى وجدت فى بابل قصة الطوفان ، فقد وجدت بحذافيرها بين قصص البابليين ، وقد استبدل فيها اسم نوح باسم رجل آخر يدعى «أوت نابشتيم» وكذلك عثر العلماء على آثار صريحة فيها اشارات إلى حكاية آدم وحواء ، ومما استنتجوه أيضا أن البابليين كانوا يؤمنون بوجود الأرواح والملائكة والكروبيم والسرافيم وغير ذلك مما هو مثبت فى الديانة العبرانية

كان استقرار اليهود بفلسطين فى أول الأمر محفوفا بالاخطار فلم تنقطع الحروب بينهم وبين الفلسطينيين والكنعانيين حتى كونوا لهم من فتوحاتهم دولة مستقلة حكمها قضاتهم ثم نصبوا عليها أول ملوكهم شاؤول ثم خلفه داود وسليمان ، ثم توالى عدد من الملوك على اسرائيل أسهبت التوراة فى وصف حكمهم وحروبهم ولكن قدر لبنى اسرائيل ألا يعيشوا فى سلام فانقضت عليهم مملكة بابل مرات أهمها عام ٥٧٦ ق . م ثم حينما غزاهم نبوخذ نصر وحاصر أورشليم وخرب هيكل سليمان ساق جموع اليهود أسرى إلى بلاده ولكن حدث فى سنة ٥٣٨ ق . م أن غزا قورش ملك الفرس مملكة بابل واستولى عليها وسمح لليهود بالعودة إلى بلادهم

وفى عام ٣٣٢ ق . م استولى الاسكندر المقدونى على فلسطين وضمها إلى أمبراطوريته الواسعة . وفى سنة ١٣٨ ق . م داهم فلسطين ملك سوريا أنطيوخوس فخرب أورشليم وأهان اليهود فى هيكلهم فثاروا وتمكنوا بعد أربع سنين من هزيمة الجيش السوري ولكن أحد ملوك سوريا عاد اليهم سنة ١٣٥ ق . م واستولى على أورشليم ثانية ثم جاءت فترة استقل فيها اليهود فى حكم الأمراء المكابيين ورؤساء الكهنة ولكنهم لم يلبثوا أن حارب بعضهم بعضا فداهمهم الرومان فى حكم بومباى عام ٦٣ ق . م وخربوا بلادهم وقتلوا منهم بضعة آلاف وجعلوا فلسطين مستعمرة رومانية

ومر بهم يوليوس قيصر فى طريقه إلى مصر فنصب عليهم غتيباتر واليا على اليهودية وابنه هيرودس واليا على أوض الجليل فثار اليهود وقتلوا الأول ولكن سرعان ما أخمد الرومان ثورتهم ونصبوا هيرودس ملكا على اليهوديه وذلك عام ٣٧ ق . م وفى حكم هيرودس تمتعت فلسطين قليلا بالهدوء فأخذ يجدد هيكل سليمان وشيد الملاهى والقصور والأبراج حتى لقب بهيرودس العظيم ، وفى السنة الثالثة والثلاثين من ملكه ولد السيد المسيح فى بيت لحم

ولما مات هيرودوس خلفه ابنه أرخيلاوس ولكن الرومان خلعوه ونصبوا مكانه بيلاطس البنطى حاكما على اليهود

بقى بنو اسرائيل فى أثناء حكم الرومان متذمرين من الاستعمار حالمين بالاستقلال إلى أن ثاروا فأرسل اليهم نيرون قائده فسباسيان لحاصرهم . ولكن موت نيرون اضطره إلى العودة إلى روما ليرتقى العرش ثم أرسل اليهم ابنه تيتوس لحاصر أورشليم حتى حلت بهم مجاعة رهيبة ثم دخلها الرومان سنة ٧٠ فأمعنوا فيها قتلا وتدميرا ثم أشعلوا فيها النار حتى خربت وتشتت اليهود فى أنحاء الأرض

ظلت فلسطين مستعمرة رومانية سبعة قرون رأى فيها بنوا اسرائيل من الويلات والذل ألوانا ، إلى أن تشتت شملهم . وفى حكم هادريان شيدت أورشليم من جديد كمدينة مسيحية وهاجر اليها جموع المسيحيين

والواقع أن الوجود الحقيقى للديانة اليهودية ابتدأ بعد النفى البابلى « ٤٤٤ ق ، م » وزاده قوة بالنفى الرومانى فى خلال القرون الاولى من المسيحية

ذهبت قومية اليهود المكانية (Territorial natianality) حوالى سنة ١٣٥ ميلادية عند ما فشلت ثورتهم ضد الرومان فأعمال هوريان منجله فى يهود أورشليم . وقامت عند ذلك على أثر خراب أورشليم مدينة جديدة هى Aelia Capitolina ولكن هذا الاسم لا يعرفه إلا الأرخولوجيون

أنكر أمبراطرة الرومان على اليهود الحق فى دخول أورشليم ، فأكمل بذلك هوريان عمل تيتس وطردت اليهودية من موطنها . ومنذ ذلك الوقت أسدل الستار على وطن الاسرائيليين ولم تقم لهم بعدها قائمة . فأصبحت اليهودية دين جماعة لا دين دولة فكون اليهود لأول مرة كنيسة لا مكان لها

ولما صارت المسيحية ديانة الدولة الرومانية الرسمية فى حكم الأمبراطور تسطنطين سنة ٣٣٠ بدأوا يشيدون الكنائس ولكن لم يلبث أن جاء الامبراطور يوليان وكان يكره المسيحيين فسمح لليهود بالعودة الى بلادهم وبناء هيكلهم فعاد بعضهم ولم يتمموا الهيكل

وفى عام ٤١٦ غزا الفرس أورشليم وخربوا الكنائس ونهبوا نفائسها وذبحوا عشرات الألوف من النصارى فعاد الرومان فى عام ٦٢٨ وهزموا الفرس وأسروا مليكهم

وفى سنة ٦٣٦ زحف العرب على فلسطين ، وهزموا الروم فى موقعة أجنادين ، وحاصروا ورشليم أربعة شهور . ثم حضر عمر بن الخطاب فتسلم المدينة وشيد مسجده

المسيحية

لقد كان من تأثير السلام والتقدم الذى أصابه العالم تحت ظلال الأمبراطورية الرومانية قيام حاجات جديدة عند الناس . ولقد كان المثل الأعلى للانسان فى الأمبراطورية أن يكون جنديا أو مواطناً صالحا . ولكن لما أخذ الناس يهجرون القتال والحياة السياسية أعنى الحياة الخارجية، تحولوا نحو البحث عن متع الحياة الداخلية . ونشطوا فى تقوية نفوسهم على الفضائل الاخلاقية بدلا من الفضائل الحربية والمدنية القديمة . كانت هذه الحركة بطيئة فى أول أمرها تحت حكم الاباطرة الاول ولكنها أخذت تتسع تحت حكم أنطونيوس حتى كان حكامه مثالا لهذا التحول الاخلاقى

كانت كل الاسئلة التى تمكن الانسان من وضعها عن مصيره وقيمته وواجبه . بعيدة عن أن تجيب عنها الديانة الرومانية . لأنها لم تكن تشتمل فى الواقع تعليما أخلاقياً . فقد انتصرت على تقديم الضحية تأمينا ضد المصائب التى قد تحدث . كأن الله يبيع حمايته ولكنه لم يعط قواعد لكى يعيش الناس بمقتضاها عيشة طيبة . لقد أوجد احترام الملكية والعقود ولكنه لم يرشد الضمائر . فلم يتعد اختصاصه المسائل العادية

اهتمت الفلسفة الاغريقية بالمسائل الاخلاقية فقد توصل بناجور وسقراط وافلاطون الى فكرة إله عظيم . وفكرة التمييز بين الخير والشر وإلى كثير من القوانين الاخلاقية . ولما افتتحت اليونان انتشرت فى روما عادة دراسة الآداب الاغريقية . وأخذت عقول نخبة القوم تشغف بنظرياته النبيلة . فلم تعد هذه النظريات موضوعا للمناقشة بين المتعلمين بل أصبحت قواعد أخلاقية شعبية منذ اليوم الذى ترجمها فيه شيشرون الى اللاتينية . وبذلك أصبح علم الأخلاق فى متناول كل من يعوف القراءة

أصبح فى عهد الامبراطورية الاهتمام بقاعدة للحياة عاما . واصبح الشعور شديدا فى أنه لا يكفى . لكى يكون الانسان شريفا، الخوف من القانون أو البوليس فأخذوا يبحثون عن المشورة عند الفلاسفة . وكان أشهرهم حينذاك سنيكا . كان يدعو الى احتقار الثروات واحتمال الالم والاهتمام بالفضيلة الانسانية وكانت هذه تعاليم الفلاسفة الرواقيين الشديدة . لقد سببت الزهو والانانية ولكنها أوجدت واجبات الضمير وقالت بأن كل انسان مقدس . ولذلك منعوا العبودية وقتال المبارزين

إن التعاليم التى بشر بها سنيكا طبقها ابكتيت تطبيقا عمليا وقد كان عبدا معتقا لنيرون . عاش عيشة الفقر والقداسة محتقرا الثروة محاولا الوصول إلى الكمال الأخلاقى

إن نفس شعور الواجب هذا ، وجد عند الامبراطور مارك أوريليوس من بعد ولم يقتصر على القيام بواجباته نحو نفسه ، بل اهتم أيضا بواجباته نحو الآخرين ، ولكن رغم انتشار نظرية الرواقيين فانها ظلت مقصورة على نخبة من المفكرين بدون تأثير على الجمهور . لأنها كانت تخاطب العقل لا القلب . ولأنها تتطلب من الانسان جهدا للارادة المفكرة بدلا من وثبة الضمير والحب كان الناس فى ذلك الوقت يأتون من جودا يمجدون للمتواضعين مسرات الفضيلة قائلين انها ليست نتيجة العقل الذى لايشعر بشيء ولكنها تدفق القلب الذى يدفع الضرر إلى حب الله والناس والخير

وجد الجمهور الذي تحرك قلبه فى هذه الكلمات عذوبة عظيمه وتعزية لمصائبه . وكانت هذه الروح الجديدة التى أخذت تدخل العالم القديم وتحوله حتى غيرته هى المسيحية

أخذ الدين الرومانى الوثنى يسير نحو الضعف وغصت الامبراطورية بالفلاسفة واخذ أشراف الرومان يسخرون من أربابهم فلم يبق من الدين القديم إلا مراسيمه وظواهره ، ولما كثرت المهاجرات تداخلت الأديان فصارت العقائد الخاصة باحداها تدخل فى الآخر وكثرت المظالم وأصبح الفقر نصيب تسعة أعشار سكان الامبراطورية الرومانية . ولكن نشأت بجوار ذلك عدة محاولات شديدة للمزج بين الفلسفة والمبادىء الشرقية الدينية القديمة لتكوين فلسفة دينية جديدة منها يمكنها أن توصل الانسان إلى الايمان والاطمئنان وبالتالى إلى السعادة الانسانية المنشودة

ولأجل أن يصير هذا المزج ممكناً ومقبولا قد تحتم إذ ذاك وجود قاعدة أساسية توصل إلى ذلك . وقد كانت هذه القاعدة سهلة الوضع بالفعل ، فقد صورها الفلاسفة حينئذ فى أن مصدر الفلسفة الاغريقية وينبوعها الأول هو عين مصدر المعتقدات الدينية الشرقية القديمة وينبوعها الأول أيضا وهو الوحى السماوي وقالوا : كما أن الحقائق قد هبطت على العقل الانسانى من السماء كذلك الاراء والمذاهب الفلسفية الاغريقية الحرة قد فاضت على التفكير البشرى من عالم المعنى

زادت القرابة بين الأديان والنظر الفلسفى وارتفع التنافر والتضاد بينهما وأثبتت الفلسفة أن القوة الالهية مبدأ الوجود العام وفوق كل المدركات

بهذا الفكر وما يتبعه من تهذيب العقيدة وتأويل الوحى وتحوير الاراء الفلسفية مهد الطريق لظهور المسيح وانتشار المسيحية التى التقى فيها الفكر الفلسفى مع الدين متحابين

انتشرت المسيحية بين أكثر الناس لأنها ديانة البر والتسامح والغفران ولم يكن من السهل أن يؤمن الناس باليهودية لأنها كانت تقصر الدين الموسوى على اليهود كأنهم شعب الله المختار ، بينما كانت المسيحية تقبل جميع الناس

كانت المسيحية فى أول أمرها مستمدة من اليهودية وحدة الله وقدرته وخلود الروح وعقاب

وثواب العالم الاخر ، رأهم ماجاءت به التعاليم الأخلاقية للمسيحية حب الله ، فمن الواجب ألا نخشى إلا الله فقط كما يفعل الوثنيون وقدماء اليهود بل يجب أن نحبه بكل عواطفنا كما يحب الابن أباه ونعمل كل مانستطيع فى سبيل هذا الحب وكل الناس اخوة يجب أن يتحابوا . حب جارك كما تحب نفسك . حب من لايحبك . حب أعداءك . لاتتعلق بمتاع هذا العالم . لاتطمع ولا تتكبر لأن الله يحب المتواضعين والمتألمين والتعساء

لننظر الان كيف انتشرت المسيحية ونظرا لتعدد البيئات التى اعتنقتها سنقتصر على سرد كيفية انتشارها فى مصر :

أخذت المسيحية فى الانتشار فدخلها كثير من العقائد الفاشية فى ذلك الحين ، ويسر هذا التداخل على الناس الايمان بالدين الجديد ، فاعتنق كثير من الناس المسيحية لقلة الفروق بينها وبين العقائد الفاشية . حلت العذراء محل ايزيس وكانوا قبل يصورونها كالنجم سيروس طالعا على الشمس فصاروا يصورون العذراء فوق هلال صاعدة للسماء وحل الثالوث المقدس « الأب والابن والروح القدسى » محل الثالوث المعروف فى الاسكندرية باسم « سيرابيس وايزيس وهاربو كريتس » وعند باقى المصريين باسم « أوزوريس وايزيس وهورس » وظل المسيحيون يطلقون لفظة الله والتى ترجمتها بالهيروغليفية نيتر على اله عيسى . وظلوا يقدسون بعض الأشجار فقالوا بان اللبخ هى شجرة يسوع المقدسة . لأنها أظلته وأبويه حينما أتوا مصر وسجدت له . وحل كهنة المسيحية محل كهنة ايزيس ، فظلوا يلبسون جبة الكتان البيضاء التى كان يلبسها كاهن ايزيس ، واستمروا يجزون الشعر من وسط الرأس كما كان يفعل كهنة قدماء المصريين . وكان الكهنة فى طيبة يسمون حجاب باب السماء فصاروا فى عهد المسيحية يسمون حاملى مفاتيح السماء . وأختلط فى ذهن القسيسين أنفسهم الصليب المسيحى بالعنخ المصرى ، والعنخ هو رمز يرمز به الي الحياة ، كان المصريون يرسمونه فى قبر الميت ، وظل الصليب يذكر فى الانجيل بانه رمز الحياة ، كما كان يرمز الى العنخ نفسه عند المصريين ، وقد رسم العنخ فى الكنائس القبطية كأنه هو والصليب شىء واحد ، ولم يجد المسيحيون تغييرا فى صورتهم التى تصوروها عن العالم الأخروى فان بوابة العالم السفلى المذكورة فى الفصل الأخير من الانجيل هى تلك البوابة النارية للعالم السفلى عند قدماء المصريين

ظل المسيحيون فى مصر يحنطون موتاهم كما كانوا يفعلون قديما . وكانوا يشعلون الشموع بمعابدهم المظلمة فصاروا يشعلونها بجميع الكنائس مظلمة أو منيرة ، وكان لهم عيد الشموع ، فصار عيد الشعانين ، وكان لهم عيد آخر يأكلون فيه الحلوى ، فصاروا يحتفلون بنفس هذا العيد فى السادس من كانون الثانى . وهو اليوم الموافق للتقويم القديم ويسمونه عيد الظهور

لم تتفق المسيحية الناشئة مع نظام الحكومة الرومانية الذي كان يرمى الى التشدد فى تقديس الأمبراطور واكباره الدينى . حتى أصبح أشبه بآله يعبد وتقدم له القرابين كما هو الحال مع الآلهة فكان تعصب المصريين للمسيحية شديدا لذلك لقى الرومانيون فى سبيل تأليه امبراطرتهم على الرغم من مجهوداتهم الكبيرة ، مقاومة عنيفة وعنادا كبيرا وصلا الى حد الجنون ، فاعتبر المسيحيون خارجين عن الدولة والدين الرسمى فلم يك بد من الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم الى الوثنية وردهم الى الطاعة والخضوع للقوانين العامة ، فأسرف بعض الامبراطرة فى قتل المسيحيين وتعذيبهم إسرافا شنيعا . جر عليهم السخط والكراهية وخصوصا دقلديانوس فقد كثر عدد من قتلوا فى عهده وتناول الاضطهاد جميع الطبقات وقد أصدر سنة ٣٠٣ م منشورا امبراطوريا يأمر فيه بهدم الكنائس وازالتها من الوجود واحراق الكتب المقدسة وفصل الموظفين المسيحيين من خدمة الدولة وحرمانهم من حقوقهم الوطنية واعتبار جميع المسيحيين عبيدا ارقاء . فكره المصريون دقلديانوس ، وحنقوا عليه . ورأوا فيه مثالا للظلم والاستبداد وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش « ٢٨٤ م »

دفع هذا الاضطهاد المصريين منذ أواسط القرن الثانى الى اعتناق الرهبنة . هذا وقد استمالت ايضا طبيعة صحراء مصر من يرغبون فى الابتعاد عن العالم . فنشأت الأديرة . وكان أهم هذه الأديرة بمنطقة وادي النطرون . ويعتبر أنبابولا أول النساك وأبا الرهبنة المسيحية فى مصر . الا ان أقدم الأديرة قد شيده الأنبا أنطونيوس الذى تولى سنة ٣٦١م . وكان لدير القديس مقار المتوفى سنة ٣٩٤ م . وغيره من أديرة وادى النطرون شأن عظيم . وكان ديرطيبا أهم أديرة الصعيد وكان الكهنة يعيشون فيه كما يعيش قدماء المصريين . وكانت به كنيسة على الطراز المصرى القديم ويبلغ عدد الرهبان فى القرن الخامس نحو خمسة الاف وكان أشهرهم أنبا باخوميوس «٣٤٨ م » وأنبا شنوده « ٤٥١ م »

بدأت الرهبنة مع بولا وأنطونيوس بالوحدة والانفراد ثم تدرجت مع مقار إلى شىء من الاجتماع والاشتراك وانتهت بالمعيشة فى جماعات منظمة مع باخوميوس وشنوده . وذلك لأن عدد الرهبان بدأ صغيرا ثم أخذ فى الزيادة حتى أصبحت الأديرة لاتقتصر على الصلاة والعبادة . بل كانت بها دور واسعة للعلم والأدب والفلسفة . وفيها مدارس زاهرة للصناعات والفنون ولو على قلة . وكان الرهبان تلامذتها الداخليين وأبناء العائلات المقيمون بالبلاد المجاورة تلامذتها الخارجيين . وكان كثير من الرهبان بدير أبى مقار يشتغلون بالمعارف والآداب ومهمتهم التأليف والتصنيف ونسخ الكتب . أما فى أديرة باخوميوس وأنبا شنوده فكان يتلقى الافراد بمدارسها أصول القراءة والكتابة . ولم

يكن التعليم مقصورا على الذكور بل كان يتناول الأناث أيضا

ولما اعتنقت الديانة المسيحية أعترفت بالرهبنة فى مصر وسمحت للرهبان بامتلاك العقارات والاراضى ومنحتهم حق الأرث فأخذ يتسع نطاق الرهبنة وتقوي شوكتها . وساعد على ذلك إعفاء الرهبان من الضرائب والسخرة . وكثيرا ماقاوموا الحكومة وبنى بعضهم صوامعهم على شكل قلاع ليدافعو عن أنفسهم عند غزوات القبائل عندماتكون الحكومة ضعيفة

وأخيرا أصاب الرهبنه ما أصاب كل شيء فى مصر فقد أدى توالى الاضطهادات الى الفوضى والتأخر الاقتصادي فانحطت جميع مظاهر النشاط فى مصر وأخذت تبتعدعن أزمنة العلم وتسير نحو غياهب الجهل فأصبحت الرهبانيه التى نشأت فى أول الامر لصالح الدين تقليدا أعمى لرهبان قدماء المصريين وصار الرهبان يستعملون الرقى ويفرطون فى الصوم للتفاخر به ولا يغتسلون وأصبحوا فى تأخر شديد مقيدين بقانون الرهبنة المطول . وأخذت المسيحية نفسها تبتعد عن غرضها الأصلى فقد كثر القديسون . وأصبحت الكنيسة هى الوسط بين الفرد وبين الله . وأصبح لله شخصية منعزلة . لايستطيع الانسان أن يتصل بها مباشرة

تركنا المسيحية مضطهدة فى عهد دقلديانوس . وقد ظل هذا الاضطهاد مستمرا حتى جاء قسطنطين « ٣١٣ — ٣٣٧ م » وكان المسيحيون فى أيامه أكثر عددا من الوثنيين ، فاعتنق قسطنطين المسيحية سنة اعتلائه العرش فأصبحت المسيحية منذ ذلك العهد ، وهى دين الكثرة ، الدين الرسمى للامبراطورية

ولما جاء تيودسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥) حارب الوثنية محاربة شديدة وفى عهده أصبحت الاسكندرية مركزاً عظيما لهذا الدين ، فعهد إلى بطريكها تيوفيل محاربة وثنيى الاسكندرية فأخذ هذا يرغم الناس على اعتناق المسيحية ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يهدم المعابد والآثار والتماثيل . ثم قصد المسيحيون الى السيرابيوم وعند ما التجأ اليه بعض من الفلاسفة والنحويين والشعراء فراراً من بطش النصاري ، أخذوا يكسرون مذابح آلهة المصريين بعد أن أخرجوا ما كان فيه من الكهنة والعلماء ، ولما تم لهم الاستيلاء عليه حولوه إلى كنيسة سموها الأركاديوم ، وسلبوا ما كان على تماثيل سيرابيس من الحلى والزينة ، وهشموه ورموا أجزاءه فى الطرق ، ثم حولوا كثيرا من المعابد إلى كنائس فغيروا وضع أبنيتها وقلبوا شكلها لتلائم الدين الجديد . واستمروا يضطهدون اتباع العقيدة القديمة حتى اضطر زعماء الفلاسفة إلى الانسحاب من الاسكندرية ، وأخيراً حرقوا هيباتيا « ٤١٥ » فيلسوفة الاسكندرية المشهورة

لقد فعلت يد الدين الجديد فى معابد دامت على الأرض آلاف السنين ما لم تفعل بها عاديات الحروب والاغارات ، فلم يبق منها إلا ماعجزت يد المتمدينين الجدد عن هدمه ، على انهم محوا من

تلك المعابد الباقيـة صور الآلهة الأقدمين ، فلما رجع المسيحيون إلى رشدهم لم يذكر مؤرخوهم هذا العمل البربرى ، ولـكنه ظل رغم ذلك نقطة حالـكة فى تاريخهم

كان الناس يعتقدون أن كنيسة روما أسسها الرسول بطرس ، ولذلك اعتبرت أولى الـكنائس فى الغرب ، إذ ليس من بينها من تستطيع أن تفاخر بأن مؤسسها رسول . وساعد على ذلك أن روما كانت سيدة العالم وعاصمة الأمبراطورية فاعتبر أسقفها أول الأساقفة

إلا أن الـكنيسة ظلت تحت حكم الأمبراطورية الرومانية . فلما أخـذ البرابرة يغزون الأقاليم الرومانية فى أواخر القرن الرابع . وفى أثناء القرن الخامس بعد الميلاد . أخـذت الحـكومة الرومانية تضعف شيئاً فشيئا . وأخذت الـكنيسة فى نفس الوقت تتخلص تدريجيا من تدخل الحـكومة فى شئونها ورقابتها عليها

ولما صار ليون الأكبر (٤٤٠ — ٤٦١) أسقفا لروما وكان رجلا عالى الهمة . شجاعا . كبير الآمال والاطماع . وضع أساساً لقوة البابوية . بأن حث فالنتنيان الثالث أمبراطور الغرب أن يصدر سنة ٤٤٥ منشورا يعلن فيه أن أسقف روما فائق على جميع أساقفة الغرب . وانه يعتبر المرجع الأعلى لهم جميعا . وحتم على الاساقفة اتباع أسقف روما فى كل ما يقرره وهدد كل من يخالف ذلك ببطش الحـكومة وقوتها . وتعتبر مساعى ليون الخطوة الاولى فى تفوق البابا فى غرب أوربا . فلما سقطت الامبراطورية الغربية (٤٧٦) أصبح أسقف روما بطبيعة الحال الوارث الأمبراطورية واعتبره الجميع زعيما وممثلا لهم أمام قواد البرابرة . وأخذ الاسقف يباشر بعض أعمال الحـكومة

وفى منتصف القرن الخامس قام نضال وصراع بين المسـيحية وبين العقليات الشرقيـة والغربية . فـكان الخلاف على طبيعة المسيح مبدأ مناقشات تناولتهـا الشيع الـكنسـية فى القرون الاولى . وكان لاختلاف المذاهب فى تلك المسـألة أكبر الأثر فى النظر فى المعقولات . وفى التأمل الفلسفى

انقسمت النصرانية إلى عدة طوائف أشهرها اليعقوبية والملـكانية إذ كان اليعاقبة يرون ان المسيح هو الله . وأن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح . وقال الملـكانيون : ان للمسـيح طبيعتين متميزتين . الطبيعة اللاهوتية والطبيعـة الناسوتية . ولم يقتصر الخلاف بين النصارى على العقيدة فى الله . بل اختلفوا فى مسائل أخرى كثيرة . هل ينزل المسيح قبل يوم القيامة . أو لا ينزل؟ وهل الحشر يكون للأرواح والابدان أو للأرواح فقط ؟ وهل صفات الله زائدة عن ذات الله . أو هى هى ؟ وقد لجـأت النصرانية إلى الفلسفة الاغريقية لتستعين بها على الجـدل . ولتؤيد تعاليمها وعقائدها

كان من نتائج تعدد الشيع الكنسية اتفاق البابا مع الامبراطور مرقيانوس « ٤٥٠ — ٤٥٧ » على عقد مجمع عام فى خلقيدونية « ٤٥١ » وكانت نتيجة هذا المجمع اخراج المعتقدين الطبيعة الواحدة فى المسيح من الكنيسة ، وكانت الكنيسة المصرية تتبع القائلين بالطبيعة الواحدة ، فلما انصاع أمبراطرة بيزنطة الى أوامر المجمع الخلقيدونى ، أرادوا أن يلزموا المصريين بالأخذ بالمعتقد الذى قرره ذلك المجمع ، فعزلوا ديوسقوروس بطريق الاسكندرية وأنفذوا مكانه أسقفا أرثوذكسيا وأخذا يضطهدون كل من أبى اتباع رأيهم . ولكن المصريين ثبتوا على أفكارهم ، ولم يزدهم الاضطهاد إلا رسوخا فى ايمانهم فاشتد بذلك الخصام بين الفريقين ، وشرع موظفو الحكومة وجنودها يسيئون معاملة اليعاقبة لا سيما المعارضين منهم فى تغيير الاساقفة اليعاقبة بأساقفة ملكانيين سواهم

كان من جراء الاضطهادات الدينية التى ابتدأت منذ أواسط القرن الخامس اتساع حركة الرهبنة إلا أنها كانت غير مستقرة حتى ظهر القديس بندكت « ٤٨٠ — ٥٤٣ » ووضع للأديرة نظاما خاصا مكنها من أن تقوم بدور جدى فى تاريخ أوربا . وفى أواخر القرن السادس ولي غريغورى أسقفا لروما « ٥٩٠ — ٦٠٤ » فكان أول من رفع منار البابوية بعد أن كانت مجرد أسقفية ، وذلك لما كان له من اليد الطولى فى ارسال القسيسين والرهبان ليبشروا بالدين بين الوثنيين واعادة المسيحية فى جنوب انجلترا بعد أن محاها السكسون الوثنيون

ومنذ ذلك الوقت زادت قوة الكنيسة وثروتها واتسعت أملاكها وزادت العناية بترتيب الطقوس الدينية والموسيقى والصلوات فى الكنيسة ، وبهذه الوسيلة اجتذبت الكنيسة غير المسيحيين اجتذابا لم يكن لها من قبل

وفى صدر عام ٦٣١ م أراد هرقل أن يجمع مذاهب الدولة المختلفة ويوحدها خصوصا التوفيق بين اليعاقبة والملكانيين ، فاجتمع الأمبراطور فى هيرابولس ، ببولص مطران أرمينيا وفيرس مطران فاسيس وأثناسيوس مطران أنطاكية ، فكانت نتيجة مناظرتهم أن اقروا التوفيق بين المذاهب المختلفة ، وكان ذلك التوفيق يقضى بان يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا ان له ارادة واحدة او قضاء واحدا

ثم أعقب هذا الوفاق ولاية فيرس بطرقة الدين فى الاسكندرية ، فهرب بنيامين بطريق القبط ، والظاهر ان مجيئه شرد قسيسيهم ، فقد كان فيرس بطريقا ووالياً على حكومة مصر من قبل الدولة الرومانية وجامعاً سلطتى الدنيا والدين ، فلما قدم تظاهر بأنه انما جاء مسالما . وجعل يبين للناس كنه المذهب الجديد (المونوفيلى) وهو المذهب الذى كان الأمبراطور يطمع أن يزيل به ما أحدثه

مجمع خلقيدونية من الشقاق بين الناس فكان عليه ان يستميل إلى المذهب الجديد أقباط مصر أولا واتباع المذهب الملكانى ثانيا . ولكن الظاهر ان مذهبه لم يلق منذ أول الأمر توفيقا ، فقد أساء هو بيانه وايضاحه ، وأساء الناس فهمه وتلقوه لقاء سيئا ، فأما اتباع المذهب الملكانى فقد رأى كثير منهم أن المذهب الجديد نقض تام لمذهب خلقيدونيه ، فان من سمع منهم بالبدعة الجديدة قال ان المذهب الجديد ما دام قد سلم بأن الله له ارادة واحدة وفعل واحد فانه لابد أن يسلم بان له كذلك طبيعة واحدة ، وعلى ذلك فان قيرس إنما جاء فى الحقيقة مسلما بالمذهب المنوفيسى ، فاخفق قيرس فى سعيه لأنه كان يود أن يحمل القبط على المذهب الذى تقرر مهما تكلف فى سبيل ذلك . فلم يعبأ بعد بما أدخله الأمبراطور على المذهب من التهذيب . بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تقصير فيهما وهما قبول الدخول فى الجماعة أو الاضطهاد فدخل فى مذهبه من لم يستطع الهجرة أو الهرب . ولجأ الى التقية وأظهر غير ما يبطن

وفى أوائل القرن الثامن وصل الاسلام فى فتوحاته الى جبال البيرنية غربا والقسطنطينية شرقا . فأصبحت أوربا محصورة وأصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية وضاعت السلطة التى كانت تربط العالم المسيحى بالامبراطورية فلم ينتصف القرن الثامن حتى زال آخر مظهر من مظاهر السلطة الادارية للقسطنطينية بايطاليا . ولما تولى بوبين عرش الفرنجة عام ٧٥٤ كان ذلك بدء ظهور قوة البابويه واهمال واجب الرعوية للقسطنطينية والواقع أن المناطق التى لم يمتلكها الاسلام شطرها فأصبح الانشقاق عن الأمبراطورية حقيقة تامة وأصبح انشقاق الكنيسة أمرا متوقعاً . واستحوذ الاسلام على أهم مراكز المسيحية فى الشرق خصوصاً الكنائس التى أسسها الرسل وهى بيت المقدس واسكندرية وأنطاكية ، ولم يعد ينافس روما إلا القسطنطينية ولكن أسقف الأخيرة بقى تحت سلطة الامبراطور بينما كان أسقف روما بعيداً عنه ومستقلا عن نفوذه

كان تأثير قرب الاسلام من الدولة الرومانية الشرقية أن أدى إلى لزوم الاصلاح باخراج الصور والتماثيل المقدسة من الكنائس ، والامتناع عن عبادة العذراء ، ووجوب تزوج القسيسين ، وانضم الامبراطور ليون الثالث إلى هذه الحركة فأثار سخط الكنائس الغربية وأعلن مجلس روما سنة ٧٣٢ ان تحطيم هذه الصور زيغ ، وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ليون ، واتسعت مسافة الخلف بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وزادت قوة روما باعتمادها على تلك الدولة الفتية (دولة الفرنجة)

لما ساد نظام الاقطاع فى أوربا فى أثناء القرن العاشر انحط شأن البابوية وأصبح مركزها موضع نزاع الاحزاب فى روما . واعتلى عرشها أناس لا خلاق لهم كانوا سببا فى تشويه سمعتها الدينية فسقطت أهميتها فى نظر المسيحيين

كان الاساتذة ورؤساء الاديرة تابعين للملوك أو للأشراف حسب نظام الاقطاع فكان للملك أو للشريف حق تقليد الاسقف الجديد أو رئيس الدير وظيفته ، ومنحه الاراضى الواسعة بعد أن يقسم له يمين الطاعة والولاء ، ويتسلم منه شارات الوظيفة . ومن ثم أصبحت الوظائف الدينية مرغوبا فيها بسبب الارض الواسعة التى كانت تابعة لها فاستغل الامراء هذه الرغبة وأخذوا يبيعون الوظائف الدينية ، ثم اتبع الاساقفة وبقية رجال الكنيسة هذه الطريقة ، وصاروا يبيعون الوظائف لمن هم أقل منهم فانحطت الوظائف الدينية فى نظر الناس

واستمر انحطاط الكنيسة والبابوية حتى جاء الامبراطور هنري الثالث فاهتم بالوظائف الدينية وعين بها رجالا ذوي كفاءة ومقدرة ، وعند ذلك بدأ البابوات يشعر بقوتهم ويعملون على اصلاح المساوىء حتى يعيدوا مجد البابوية الاولى ، وتتمتع الكنيسة باستقلالها وترغم الملوك والامراء على طاعتها . وعلى ذلك بدأ فى القرن الحادى عشر دور كفاح بين السلطتين الزمنية والدينية ، ولم ينته هذا القرن حتى انتصرت البابوية على الامبراطور وابتدأ البابا يفكر فى السيطرة على جميع العالم المسيحى باخضاع الكنيسة الشرقية واخراج المسلمين من بيت المقدس . فكان ذلك بدأ الحروب الصليبية (١٠٩٧) التى انتهت باحتلال بيت المقدس ، إلا ان السلاجقة أخذوا يوحدون قواهم فلم ينتصف القرن الثانى عشر حتى استرجعوا ما أخذه الصليبيون وظلوا فى نضالهم فلم تنته هذه الحروب الا فى أواخر القرن الثالث عشر

لم ينته القرن الثالث عشر حتى كان الملوك قد نجحوا فى تكوين حكومات قوية ، وفى اخضاع الأشراف والمدن ، وفى القضاء على نظم الاقطاع تدريجيا ، وأخذوا ينكرون على السلطة الدينية تدخلها فى شئونهم الداخلية والسياسية ولم يقبلوا أوامر البابا أو يكترثوا بتهديداته ، كما كانوا يفعلون سابقا بل أخذوا يفرضون الضرائب على ممتلكات رجال الدين ويستولون عليها . وفى أواسط القرن الرابع عشر أعلن ويكلف بانجلترا (١٣٢٠ — ١٣٨٤) حق السلطة الزمنية فى ممتلكات الكنيسة اذا أساءت الكنيسة ادارة هذه الممتلكات ، وأعلن أنه ليس للبابا قدرة إلا فى حدود الكتب المقدسة وأخذ يطعن فى البابوية وادعاءاتها ونظمها ، والأساليب التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . ومع ان ما انتشرت آراؤه فى أوربا وخصوصا فى بوهيميا حيث كانت الصلات بينها وبين انجلترا ودية . فقام يوحنا هوس من جامعة براغ ونشر آراء ويكلف وأعلن أنه لا يحق للانسان أن يطيع أوامر اناس مثقلين بالذنوب والخطايا . ومن ثم اشتد انتقاد الكنيسة والبابوية . فخشيت السلطة الدينية والسلطة السياسية انتشار هذه الأفكار فاقترحت جامعة باريس أن يعقد مجلس دينى عام تكون سلطته وارادته فوق ارادة البابا ويترك لهذا المجلس علاج الحال . فعقد أول مجلس

فى بيزا (١٤٠٩) وثانى مجلس فى كنستانس (١٤١٤) وكانت أهم أعماله محاكمة هوس فقرر دينونته وحكم عليه بالحرق فلم يكن لذلك من نتيجة سوى تقوية حركة المعارضة

ظل الفساد الذى أصاب رجال الدين والكنيسة يتضاعف حتى نشأت مسألة بيع صكوك الغفران. فكان يمنح الغفران مقابل الاعتراف والتوبة والجزاء بالصيام أو الحج او الزكاه ولكن قرر البابا ليون العاشر عام ١٥١٥ بيع صكوك الغفران للناس عامة عن كافة الآثام التى ارتكبها الأحياء والأموات وعهد الى نفر من أعوانه بنشر الدعوة وجمع المال بطريق المصارف حتى انتقل الغفران إلى عملية تجارية بعيدة عن تقاليد الكنيسة وعقائد الدين. وظهر فى ذلك الوقت المصلح العظيم مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٠) فعلق على كنيسة وتنبرج (١٥١٧) احتجاجا على بيع الصكوك خاصة ومبدأ الغفران عامة فتجاوبت أنحاء ألمانيا بصدى هذا الاحتجاج وانضمت اليه الآلاف من الأشياع والأنصار. فأوفد البابا رسله الى لوتر ليناقشوه فى دعواه استنادا على السلطة البابوية المستمدة من تقاليد العهود الطويلة. فأنكر لوتر عقيدة الكنيسة وسلطتها العليا. وأعلن أن الكتاب المقدس وحده قانون العقائد ومصدر الدين

انتقل بعد ذلك من بحث مسألة الغفران إلى الى بحث العقائد على اطلاقها لوضع أساس عقيدته الدينية وعقيدته السياسية التى تضمنت علاقة الكنيسة بالحكومة فى كتابه المعروف باسم « رسائل الاصلاح »

وفى عام ١٥٢١ حوكم لوثر فى ورمس أمام مجلس الامبراطور فكان ثابت العقيدة فى مبدأ واحد يميزه عن كل معاصريه وهو اعتبار البابا عدوا للمسيح وسلطته هادمة لقواعد المسيحية فحكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية كما حرم من الحقوق الدينية من قبل

عكف لوثر بعد ذلك على ترجمة الانجيل من اللغة الاغريقية لاول مرة ترجمة تمتاز ببساطة العبارة وقوة الاسلوب بحيث كانت هذه الترجمة أكبر دعوة وجهت إلى الجماهير، ونقلت موضوعات البحث والمناقشة من الخاصة إلى العامة

ظل البروتستانت اتباع لوثر فى صراع مع الكاثوليك فاقتصرت الكنيسة البروتستانتية على الانتشار فى ألمانيا واسكندناوة، لان خضوعها بحكم تعاليم لوثر للسلطة الزمنية جعلها عاجزة بطبيعتها عن الانتشار بمجهودها الذاتى فى البلاد التى تلقى فيها معارضة من السلطات الحاكمة. لذلك انتشرت دعوة الاصلاح فى أوربا فى صور أخرى لاتخالف الدعوة اللوثرية كثيرا فى عقائدها وانما تخالفها فى نظام الحكم فى كنائسها

وقد ظهرت أول دعوة للاصلاح البروتستانتى خارج ألمانيا فى مدن سويسرا وكان القائم بها

زونجل (٢٤٨٤ — ١٥٣١) . بدأ دعوته فى زورخ وجعل أساسها نقد صكوك الغفران والاعتماد على الكتاب المقدس وحده ، كما فعل لوثر ولكنه خالفه فى تفسير العقائد ، وفيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم فى الكنيسة على أن كنيسة زونجل لم تصادف نجاحا إلا فى موطنها وفيما يليها من الولايات الألمانية الجنوبية أما فى باقى انحاء أوربا فقد تطرق الاصلاح بواسطة كالفن « ١٤٠٩ — ١٥٦٤ » الذى نشأ بفرنسا وكان من المتأثرين بدعوة الاصلاح فلاقى ما لاقاه غيره من الاضطهاد ، ففر الى استراسبورج حيث وضع رسالة فى أصول الدين المسيحى ضمنها تعاليمه ومعتقداته . وهى تتضمن الاعتماد على الكتاب المقدس وحده ، شأنه فى ذلك شأن لوثر

أخذ الكاثوليك يقاومون البروتستانت ، فعمدوا الى كثير من الوسائل لمقاومة المذهب الجديد ومن ذلك محاكم التفتيش وطوائف اليسوعيين (الجزويت) ومجلس ترنت الكنسى (١٥٤٥ — ١٥٦٣) فأدت هذه الوسائل الى صراع دينى خطير طول القرن السادس عشر ، انتهى كما بدأ بشطر أوربا شطرين ، الكاثوليك والبروتستانت الا أن انجلترا دون ممالك أوربا ظلت منقسمة ازاء الاصلاح الدينى الى فريقين متساويين تقريبا ، فاضطربت شئون البلاد سنوات طويلة ولكن هذه المشكلة الدينية حسمت فى نهاية الامر فى عهد الملكة الزابيث باتخاذ موقف وسط بين الفريقين المتنازعين ، وذلك باعادة كافة المظاهر الخارجية للكنيسة الكاثوليكية ، أما العقائد الدينية فقد حولت تحويلا يتفق ومذهب كالفن ، فنشأت من ثم كنيسة خاصة بانجلترا أطلق عليها اسم « الكنيسة الانجليكانية »

الاسلام

كان جو العالم فى القرن السادس متلبدا بغيوم الاضطرابات والفتن فبعد أن بدأ جوستنيان أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية (٥٢٧ — ٥٦٥) ظهر بعده أباطرة ضعاف لم يزيدوا الدولة إلا خبالا ، إلى أن اعتلى العرش هرقل الأول — (٦١٠ — ٦٤١) فحاول أن ينهض بها ، ولكن النوائب ما فتئت تحل بالدولة من جراء المنازعات الدينية التى شغلت أذهان الناس حتى اضطر هرقل أن يقضى أكثر وقته فى محاولة حسمها

ولما قويت شوكة الفرس فى عهد كسرى الثانى (٥٩٠ — ٦٢٨) كسبوا عدة انتصارات باهرة ضد الدولة البيزنطية ، فأخذ كسرى دمشق والقدس عام ٦١٤ ثم استولى على مصر عام ٦١٩ وبذلك قضى على معظم أملاك الدولة البيزنطية فى الشرق

إلا أنه ما كاد كسري يستولى على هذه الأملاك حتى ظهر هرقل وصمم على إعادة مجد الدولة فجمع قواته وحارب الفرس وهزمهم فى عدة مواقع أهمها موقعة نينوى « ٦٢٧ » ولكن بينما كان الروم منتصرين فى الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية فى الغرب وما لبث أن خرج ابن كسرى على أبيه وقتله وعقد الصلح مع الأمبراطور ، على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه أولا

وبينما كان أكبر ملوك الأرض إذ ذاك يجدان فى توطيد ملكهما وتنظيم قواتهما إذ وصلت إلى كل منهما سنة ٦٢٨ م رسالة من شخص غير معروف لهما يدعوهما فيها للايمان بدين جديد ، أما الأمبراطور فلم يأبه للدعوة ، وأما كسري فانه غضب ومزق الرسالة ورمى بها فى وجه حاملها

أما الرسالة فهى رسالة الاسلام لصاحبها محمد نبى الله الجديد

كانت عظمة الأمبراطورية النارسية والبيزنطية مجرد مظهر كاذب فقد كان يسرى فى كيان هاتين المملكتين داء كمين وظل السوس ينخر فى عظامهما دائبا فى تقويض أركانهما بسبب ماأظهرتاه من عسف وجور مهلكين ، هذا إلى ما حدث من الفواجع التى كانت سلسلة متصلة الحلقات من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء

فى عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ظهر الاسلام فجأة من بين تلك الصحراء التى لا يكاد يعرفها أحد ، وأخذ المسلمون يمثلون دورهم على مسرح الحياة ، بعد أن كانوا شعباً نهبا مقسما . تناوىء كل قبيلة منه القبيلة الأخرى فيحتدم النزاع وتقع الحرب الطاحنة

كان العرب يعبدون فى أول امرهم الأصنام والأوثان ، وكان لكل قبيلة إله خاص بها تكل العناية به الى أسرة بعينها منوط بها رعايته وتلبية رغباته ، وكانت هذه تقوم بحراسته وتعظيم شأنه

كما تؤدى له حقه من المراسيم الكهنوتية والطقوس الدينية التى تقيمها فى محرابه ، وكانت تحرص كل قبيلة على صنمها وتشيد بذكره وتفرده بأقصى ما تستطيع من حب لأنها ترى فيه نوعا من الملكية ، وكان الكهان ينضحون عنه ، دائبون فى طلب القرابين لذلك النصب ، وان كانوا فى الحقيقة يطلبونها لأنفسهم ويجرون المغانم لهم باسم الله تعالى

وكانت مكة حاضرة الثقافة فى أواسط بلاد العرب ، وقد بنتها قريش فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، المحراب الذى يفخر به كل من يملكه ويقع فى حوزته . ذلك هو محراب الكعبة ، وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير ، وأن جدد وأعيد بناؤه عدة مرات ، وهو مؤلف من أربعة حوائط مبنية بحجارة لم يهذ بها الصقل وقد رصف بعضها الى بعض دون أن يتخللها الملاط ، وقد غطيت بقطعة من القماش ، أما ارتفاعها فانه يزيد على ارتفاع الرجل . وأما مساحتها فتبلغ مائتى قدم

وكان هبل اسم الصنم الرئيس بين أصنامهم . وكان ربا لقبيلة قريش منذ النصف الأول من القرن الثالث . وهو تمثال عقيق . جلبه من الخارج بعض الرؤساء

لم تكن الكعبة ملكا للقرشيين . بل كانت ملكا مشاعا لأكثر القبائل التى تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة ومن ثم كان للكعبة صبغة عالمية عندهم

وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنمها الذي تعبده فى ذلك المحراب حتى زاد عدد الأرباب التى بها على الثلثمائة . وكان التسامح الدينى سائداً وقد وصل بهم الى أعظم حدوده فقد كان بالكعبة خلاف الأصنام صورة ابراهيم الخليل وصور الملائكة وصورة العذراء مع طفلها عيسى . مع انهم كانوا لا يقدسون شيئا كما يقدسون الحجر الأسود ويزعم الكثيرون انه أحد الرجوم الساقطة من السماء

بلغ احترام العرب للكعبة حد التقديس . وزاد اجلالهم لها فقدسوا ما جاورها من البقاع . التى جعلت عليها الكعبة مسحة القداسة . وأصبح ما يكتنفها الى مابعد عدة فراسخ حراما لا يجوز لكائن أن يفتك بسواه فيها أو يصطاد من حيوانها . احتراما لها . وكان يؤم الكعبة كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنحاء . لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها . أما العبادة فكانت بسيطة تنحصر فى التضرع للأصنام . وطلب معونتها . ثم تقديم القرابين . وكانت تنقسم الى قسمين : — أحدهما وقف على الله — وهذا من نصيب المعوزين أبناء السبيل الذين يحلون ضيوفا على أهل القبيلة . والآخر وقف على النصب وهو من نصيب الكهنة وحدهم . ولكن مالبث الفساد أن دب فى هذه المراسيم ففقدت معناها الأول فى القرن السادس من الميلاد وتغير جوهرها فأصبحت طائفة من الخرافات والاوهام . التى يحبها العقل . وأخذ الكهنة يخدعون العباد . فاذا

قدمت. القرابين استأثروا بها لأنفسهم وحرموا المعوزين منها . بل ان العباد أنفسهم أخذوا يخدعون الآلهة . فقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الاصنام أن يذبح نعجة قربانا له اذا انكشفت غمته فلا يكاد يزول عنه الخطر حتى يستبدل النعجة ـ وهى ذات قيمة عنده ـ بغزال لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده . يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لا يكاد يفرق بين النعجة والغزال

كانت ديانة العرب الاولى واهية لا ترتكز على أساس متين . فكان من اليسير على العرب أن يقبلوا دينا آخر فيدينوا بالمسيحية واليهودية مثلا لانتشارهما فى كثير من بلاد العرب . الا انه لم يكن للمسيحية تأثير قوى فى أنفسهم . فقد كان المتدينون من العرب فيها اقلية لانها تبشر بالسلم وتأمر بالاغضاء والابتعاد عن الحروب . ولم يكن فى استطاعة العرب أن يبتعدوا عنها كما أن جل الغنائم لا الانتفاع بها لم يكن فى شىء من الدين المسيحى أو اليهودى . أما حظ اليهودية فى اجتذاب العرب اليها فلم يكن أكثر من حظ المسيحية . فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن شردهم الامبراطور هادريان فوجدوا فى بلاد العرب ملجأ لهم ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الامة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام الى ارغام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينيه من بعض الوجوه محظور على اليهود . ويعتقد اليهود من ناحية أخرى بأن اليهودية لا تلائم الا شعبا مختارا . أما ان تكون دينا عاما للناس فلا . ذلك انها ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التى تعلق بها اليهود بعد أن خرب بيت المقدس . وليس هذا مما يلائم طبيعة العرب ولولا ذلك لكان فى قدرة اليهودية أن تبسط نفوذها الدينى على العرب

أما ديانة العرب التى ألفوها فلم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم بل كانت ضعيفة الاثر قليلة الخطر . ولكنها كانت دين سوادهم . والحق أن أحدا لم يكن مضطرا الى العقيدة . بيد ان القضاء على عبادة كان يدين بها أجدادهم وآباؤهم من قبل كان يثير فى نفوسهم كبرياءهم القومى

كانت الدينة فى نظر العربى القديم أمراً لا خطر له . وآية ذلك ان شعراء الجاهلية لا نكاد نراهم يذكرون دينا أو عقيدة فى أشعارهم . ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها — اذا استثنينا أسماء الآلهة وبعض الشعائر المختلفة — الا عبارات مقتضبة لا نكاد نعثر فيها على ذكر لعباداتهم القديمة . لقد عاش العرب للحياة الحاضرة ولم يشتغلوا أذهانهم بشىء من مسائل ما وراء الطبيعة . وكان مؤمنوهم تابعونهم فى ذلك الشعور ويصدرون عنه . ومع كل هذه الاعتبارات فقد وجدت لهذه القاعدة شواذ . فان وجود جماعات شتى من متألهى العرب الذين يدينون بوحدانية الله وان اختلفت وجهاتهم وتباينت نحلهم لتدين بعضهم باليهودية أو المسيحية كان أمراً له خطره عند العرب وله ثره فى نفوسهم . اذ كان أولئك المتألهون لا يفتأون يبثون عقائدهم فيمن حولهم من العرب .

ومن ثم رأينا فى أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائل وآثارا لايمان عميق بوحدانية الله . ورأينا منهم شعورا يقظا بالتبعة المترتبة على ما تصنعه أيديهم من خير أو شر . وهذه الفئة التى ترى هذا الرأى هى طائفة الحنفاء

يجتهد العالم ولهاوزن فى أن يبرهن أن الحنفية كانت مذهبا نصرانيا ذائع الصيت فى بلاد العرب ولكن ليزنسكى يعارض ويقول أن الحنفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهبا معينا . بل كان هناك اشخاص من مفكري العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ودخل بعضهم فى اليهودية ودخل بعض آخر فى النصرانية وبقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الاديان

شملت الحنفية فى الواقع كثيرا من التعاليم اليهودية والنصرانية وذلك لشدة انتشار هاتين العقيدتين فى بلاد العرب ، ومما يستشهد به المستشرق دوزى عن هذا الانتشار هو أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بنى شمعون اليهود وأن تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الا وراثة اسرائيلية قديمة ، حتى أن ابن هشام كثيرا مايتحدث عن حرم مكة وبنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة فى تقديسه بشكل يشبه مايقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس باورشليم وعلاقة الآباء الاقدمين به وتقديس الملائكة له حتى يخيل للقاريء فى أثناء قراءة كتاب السيرة لابن هشام فى هذه الموضوعات أنه يقرأ صحف التلمود القصصية

كان لانتشار اليهودية تأثير عظيم فلم يقتصر على المراسيم والطقوس بل تعدي ذلك الى الاساطير التى تبودلت وكان اهمها مارسخ فى نفوس اليهود ومعاصريهم من اعتقاد قوي بمجيء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء فكان لهذا الاعتقاد اثر كبير فى انتشار الاسلام كما كان سببا فى ظهور النصرانية من قبل عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سببا لظهور عدة أشخاص من اليهود فى القرون القديمة الوسطى بمظهر الانبياء والمرسلين حيث عرضوا على اخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لأنفسهم دعوة المسيح المنتظر

كان هذا الاعتقاد من العوامل المهمة التى أدت الى انتشار الاسلام اذ كان العرب يسمعون من اليهود فى اثناء أوقات الشدة والازمات أن المسيح المنتظر سيأتى ليتغلب على اعداء الشعب المختار

وكانت شريعة الحنفاء سمحة رشيدة واضحة الحجة سهلة الاقناع لهؤلاء المرب العمليين، وهى فى جوهرها صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة ، ولم يكن ينقصها لبلوغ هذه الغاية الا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية ، وأن تكون منزلة من السماء ، أو تفهم على انها كذلك

وهذا هو العمل العظيم الذي أخذ محمد على عاتقه القيام به ليتم نقص الحنفية . ولكن هذا العمل — على مافيه من صعوبة — قد ضوعفت مصاعبه لأن العرب لم يكونوا فى حاجة الى الدين فحسب ، بل كانوا الى ذلك ينفرون بطبيعتهم من كل مظهر من مظاهر العبادة ومراسيمها كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة ، والمعميات التى تتصل بما وراء الطبيعة ولابد من اقناع حازم ويقين لايتزعزع للتغلب على هذه العقبات

نشأ محمد عفيفاً ، شريف المقصد ، صادق الحديث ، عظيم الأمانة ، كان مبغضا لعبادة الاصنام وشرب الخمر ولعب الميسر وكل ماكانت تدين به الجاهلية . بجانب هذه الصفات الاخلاقية العظيمه امتاز محمد بعبقرية فذة مكنته من أن يكون صاحب رسالة وزعيما ومشرعا

اصطدمت تلك الصفات العظيمة التى جبل عليها محمد ببيئة فاسدة فدفعته الى التفكير فى اصلاح هذه البيئة والسير بها الى مثل أعلى ينطوي على الرقى والتقدم . ومن ثم انصبت جهود محمد على اصلاح الحالة الاجتماعية فى بلاد العرب . فابتدأ يدعو سراً الى دين جديد هو الاسلام . اساسه الاعتقاد بالله الذي لاشريك له رب العالمين وخالق كل مافى الوجود ، وهناك وراء هذه الحياة . حياة أخرى ويومها يوم القيامة ويوم الحساب . المثوبة على العمل الصالح والعقوبة على العمل السيء — وكل عمل اتاه الانسان يسجل عليه ثم يقدم له يوم القيامة . وقد جعل للمثوبة والعقوبة دارين : دار المثوبة وهى الجنة ودار العقوبة وهى النار — ووراء هذا العالم العادي عالم آخر روحى ، وفيه نوعان من الأرواح : نوع خير يطيع الله مأمره . ويحبب نفوس الناس الى الخير ويسمى الملائكة — ونوع شرير يستغوي النفوس الى الشر ويسمى الشياطين

أسلم على يد محمد كثير من المتصلين به وأخذ يزداد عددهم ، فلم تنقض ثلاثة أعوام على ابتداء الدعوة حتى أخذ يبشر بها جهرا

نبذ أهل قريش دعوته وعملوا على ابطالها بكل قواهم ، فاخذ يدعو القبائل فى الأسواق ومواسم الحج الى توحيد الله . فاستجاب له بعض أهل المدينة فاسلموا ورجعوا الى قومهم ، فاسلم كثير على أيديهم وأخذ الأسلام ينتشر فى المدينة ، حتى بايع بعضهم محمدا فى أحد المواسم على الايمان والمدافعة عن دعوته بالسيف . ولما علمت قريش أن أهل المدينة بايعوا النبي ، وانه عزم على الخروج اليهم خافوا أن يؤلبهم عليهم ويغزوهم فى دارهم فعزموا على قتله ولما علم بذلك خرج مع أبى بكر مهاجرا الى المدينة سرا . ففرح به أهلها ، واتخذها دار اقامته وبنى بها مسجده العظيم ، أحد الحرمين الشريفين . ثم تلاحق به أصحابه من مكة فسماهم المهاجرين وسمى أهل المدينة الانصار ، ثم أخذ ينشر دينه بالدعوة اليه مع حماية هذه الدعوة بالسيف

وفى سنة ٦٣٢ م قبض محمد لغير وصية بالخلافة فتنازع المهاجرون والأنصار فى أمرها ، وبعد

خد ورد وامتناع من بعضهم انتخب أبو بكر خليفة ، فاخذ يتم الحروب التى ابتدأها محمد قبل وفاته

الا أن بعض العرب لم تكد تسمع بموت النبي حتى ارتدت عن الاسلام ، وبعضها منع الزكاة الا أهل المدينة ومكة والطائف ، وكاد الاسلام يقتلع من أصوله ويذهب كأن لم يكن ، فاستفز ذلك غضب أبى بكر وبعث الجيوش لمحاربة المرتدين . فكانت حروب الردة — التى أريقت فيها الدماء واقترف العرب من الفضائع فيها ما لم يعرفه الأسلام قط ، فكانوا اذا انهزم العدو تعقبوه ونكلوا به لأن الردة جزاؤها القتل لاهوادة فى ذلك ولا رحمة

وأخيرا تم النصر لأبى بكر فوجه هؤلاء البدو الظامئين الى الدماء الى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية وذلك ليشتغل العرب عن التفكير فى خضوعهم ولا يدع لهم وقتا كافيا لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالأسلام لايكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغنائم

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الكثيرون بالاسلام ووقفوا عند هذا الحد

واذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون اليهم بسبب ، لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددا غاية فى القلة ، أما العرب الذين استوطنوا افريقيا فقد ظلوا حتى بعد مضى قرن من الهجرة لايعرفون من الاسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر

اما أولئك الذين استوطنوا مصر فانهم ما تحدثوا عن الأسلام أو شغلوا به أنفسهم قط وكانوا لايذكرون إلا أيام الوثنيه وعهودها الطيبة بالثناء والحنين

ثم لما انتهت خلافة أبو بكر وعمر وعثمان وجاءت نوبة خلافة على ثارت عليه عواصف الفتن والدسائس وانقسم المسلمون . طائفة معه وسميت شيعة على وطائفة عليه وسميت شيعة بنى أميه ، ثم انتهى الامر بقتله غيلة ، ثم بموت ابنه الحسن وقتل اشياع بنى أميه ابنه الحسين المطالب بالخلافة بعد أخيه فحرم نسله من الخلافه . فكان ذلك سببا فى استفحال العداوة بين شيعة أميه وشيعة على التى انضمت لها جماعة المسلمين فاضطرت شيعة على أن تعمل فى السر لأعادة الخلافه للعلويين ، وغلا أكثرهم حتى ادعى انها لم تصلح ولن تصلح لغير أهل البيت من أولاد على ، فانكر عليهم بقية المسلمين ذلك وظهر بجانب السنيين والشيعة الخوارج وكانوا يرون أن الخلافه يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين . والمرجئه وهم لا يتحدون أحد الفرق السابقه بل يقابلونها باللين والتسامح

منذ أن فتح العرب أغلب الممالك المجاورة لهم دعوا أهلها الى الدخول فى الاسلام فان اسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء وان لم يسلموا دعوهم إلى أن يقبلوا حكم العرب ويبقوا على دينهم إن شاءوا ويدفعوا الجزية فيصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم . وكانوا فى ذمة المسلمين يحمونهم

ويدافعون عنهم من أجل هذا كانوا يسمون أهل الذمة . وأن لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقتلوا

وكانت معاملة المسلمين أهل الذمه تختلف باختلاف العهود المعطاة لكل طائفه منهم . وباختلاف القابضين على زمام الأحكام من المسلمين . وتنحصر أوجه الاختلاف فى العهود فى شدة أو قلة المقاومه التى أبداها أهل الذمة ضد المسلمين . وفى كثرة أو قلة ثقة المسلمين فيمن عاهدوه منهم

وقد عوهد أقباط مصر فى أول الفتح على ستة شروط مستحقه : —

١ — ألا يذكر أهل الذمه كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف

٢ — ألا يذكروا رسول الله بتكذيب له أو بازدراء

٣ — ألا يذكروا دين الأسلام بذم له أوقدح فيه

٤ — ألا يصيبوا مسلمة بزنا أو باسم نكاح

٥ — ألا يفتنوا مسلما عن دينه أو يتعرضوا لماله أو دمه

٦ — ألا يعينوا أهل الحرب . ولا يؤوا أعداءهم

ترك المسلمون المسيحيين وشأنهم فى كنائسهم وأديرتهم وأعادوا اليهم ماأخذه الروم الملكانيون منهم وأطلقوا لهم الحرية فى أن يبنوا منهـا ما طاب لهم ، ولم يكن للمسلمين هوى مع أحـد المذهبين الذي قام النضال بينهما فى العهد الرومانى فنرجح أن كليهما قد بقيا جنبا إلى جنب يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونهما جميعا بحمايتهم

أما ما كان دين التوحيد لا يحتمله من الشعائر الوثنية فقد حاربها الاسلام . غير ان العرب بعد أن صالحوا كثيرا من المسيحيين أخذ كثير من ولاتهم يشتدون عليهم وعلى الخصوص لما أفضت الخلافة إلى بنى أمية . فزادوا فى شدة الشروط السالفة ، وأغضوا النظر عما كان يرتكبه عمالهم أحيانا من المظالم فى حق النصارى ، فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويزيدون قيمة الجزية المفروضة عليهم . ففى القرن الثانى للهجرة هدم على بن سليمان بعض الكنائس فاحتج موسى بن عيسى والى مصر من قبل الرشيد بأن هذه الكنائس مما بنى فى عهد الصحابة والتابعين ووافق الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة من أحبار الأمة بارجاعها الى سالف عهدها وقالا بأنها من عمارة البلاد ، أما الاصنام والتماثيل فقد صدر أمر الخليفة بكسرها سنة ٧٢٣ م

ولما تولى العباسيون الحكم ، شرعوا فى تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، فأحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة ، لأنهم كانوا أهل معرفة فى الحساب ، والكتابة والخراج فضلا عن العلوم الأخرى ، فقربوهم اليهم وأكرموهم وسهلوا لهم أسباب المعيشة ، وأغدقوا عليهم الرواتب الضخمة ، فتقاطر أهل الذمة اليهم ، وخدموا الدولة العباسية بعقولهم وأقلامهم

بأمانة واخلاص ، لذلك كان الخلفاء كثيراً ما يغضون عما فى العهود التى أخذت عليهم من التضييق على مظاهر عباداتهم يمنعونهم من احداث الكنائس أو الاحتفال بالاعياد . غير ان ذلك كله انما كان منحة يجود بها على أهل الذمة كرم أخلاق بعض الخلفاء العباسيين وسماحة صدورهم ، فيقتدى عمالهم بهم أحيانا . ولكنه لم يكن ليمحو العهود المعطاة والمأخوذة فى أيام الفتح الاولى . ولا لينشىء حقوقا جديدة لاهل الذمة فى دستور الحكم الاسلامى . فكان اذا تغير عليهم خاطر خليفة ولو كان متسامحاً ، عمد الى تنفيذ تلك العهود

ظل الاسلام عظيم الشوكة فى عهد الدولة الاموية والعباسية . الا انه بعد أيام المأمون (٨١٣ - ٨٤٣) أخذ الانحلال يتسرب الى جميع أنحاء الدولة وأخذت تتصدع وحدة الامبراطورية العربية وحلت القوميات كل الرابطة الدينية . فنشأت الدولة السامانية ببخارى . والديلمية بفارس والعراق. وبنو حمدان بالجزيرة . والطولونية ثم الاخشيدية والفاطمية والايوبية بمصر والشام ثم ورث السلجوقيون الامارات الشرقية ما عدا مصر والشام

كان السواد الاعظم من المصريين يعتنق المذهب السنى فى حين كان الشيعيون اقلية صغيرة بالنسبة الى أهل البلاد فلما تولى الفاطميون الحكم أخذوا يبثون الدعوة للبيت العلوى على انهم لم يوفقوا فى تنفيذ هذه السياسة توفيقا تاما

ألغى الفاطميون الخطبة للعباسيين وأقاموها للمعز الفاطمى ومنعوا لبس السواد شعار العباسيين وقرروا لبس الملابس البيضاء . وحرموا على الناس قراءة التسبيح فى صلاة الجمعة ونهوا عن التكبير بعد الصلاة . وغيروا من صيغة الآذان فبعد أن كانت (الله أكبر الله أكبر) أصبحت (حى على خير العمل) وهى من العبارات المألوفة عند الشيعيين . وعلى العموم غير الشيعيون أكثر العادات التى كانت مألوفة عند السنيين

استعان الفاطميون فى نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدمجونهم فى جيوشهم . لبث الدعاية باسمهم . وبلغ عدد هؤلاء الدعاة اثنى عشر نقيبا . وعينوا لهم رئيسا هو داعى الدعاة . وكان له نواب ينوبون عنه فى سائر البلاد المصرية . ويحضر اليه فقهاء الدولة يتلقون منه الاوامر . ويقدمون اليه محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعى . فيقدمها الداعى بنفسه قبل القائها الى الخليفة فيقر ما يقبله منها ويذيله بامضائه . ثم يردها الداعى اليهم

ظلت الدولة الفاطمية تعمل من ناحية أخرى على تفويض ملك الدولة العباسية . فعمدت الى صبغ هذه المحاربة السياسية بصبغة دينية . وتحقيقا لهذه الغاية أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة يعلم فيها الناس الالحاد

حمل الحاكم الى دار الحكمة الكتب من خزائن القصور ووقف لها أماكن ينفق عليها من

ريعها وأقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والاطباء وأجرى لهم الارزاق وأباح لسائر الناس الوصول اليها على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا وينسخوا ما شاءوا وقد أباح المناظرة بين المترددين اليها

كان الطالب يتلقى فى دار الحكمة بعض تعاليم الاسماعيلية وهى طائفة من فرقة الباطنية التى أسسها عبد الله بن ميمون القداح وتقول بأن تعاليم الاديان باطلة . وأن الفروض التى أدت بها كالصوم والصلاة كذب وشعوذة أريد بهما اخضاع الناس . ويتلقى أيضا بعض تعاليم المانوية التى تهدم وحدانية الله . وبعض تعاليم أرسطو وافلاطون وغيرهم التى تقول بأن تعاليم جميع الاديان يجب أن تخضع لشريعة العقل والعلم . ويعلم الطالب ان الرسل الحقيقيين هم رجال العقل السياسيون الذين ينشئون الحكومات ويؤسسون النظم المدنية للناس . والغرض الاخير لهذه التعاليم احلال الفلسفة محل الدين ورفض الاديان واعتبارها حديث خرافة

ولما انتهت الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ م ماتت فى نهايتها هذه النزعة الالحادية لأن دار الحكمة لم تعش بعد هذه الدولة

ولما تغيرت الحالة السياسية فى مصر وأصبح الحكم للأيوبيين ، عادت مصر سنية يخطب خطباؤها فى المساجد للخلفاء العباسيين ، وتغير كثير من النظم والعادات التى كانت متبعة أيام الفاطميين ، وأسست المدارس لكى تعنى بتدريس المذهب السنى . ظل الأيوبيون يحاربون المذهب الشيعى حتى وقعت الحروب الصليبية ، فقاوموها أشد مقاومة وكان الانتصار حليف المسلمين فصدوا بذلك المسيحيين عن التغلغل فى أراضى المسلمين ولولا هذا العمل لتغيرت خريطة توزيع الدين الاسلامى فى الشرق تغيرا عظيما

لم تدم الوحدة الدينية التى كونها الأيوبيون فى مقاومتهم للصليبيين ، وذلك لأن المماليك الذين كان يستخدمهم الفاطميون ثم أخذت الدولة الأيوبية فى استكثارهم كانوا سببا فى تفكيك هذه الوحدة

كان المماليك من بيئات مختلفة يدينون بعقائد متبابنة . ورغم تعلمهم قواعد الدين الاسلامى فى طفولتهم الا انهم كانوا فى كبرهم ينتمون اليه ظاهرا . فضعف شأن الدين وكثر الظلم والاستبداد وظل الحال كذلك حتى تولى الحكم بيبرس (١٢٦٠ م) فأراد أن يوطد مركزه ضد أعدائه بايجاد سلطة دينية تناصره فى الحكم وتؤازره فى القضاء على نفوذ الشيعة الذى كان لا يزال باقيا فى مصر فكان سبيله إلى ذلك اعادة الخلافة العباسية وجعل مقرها مصر

بايع الشعب أحد سلائل العباسيين بالخلافة ودعى المستنصر بالله ثم أراد بيبرس أن يعيد اليه خلافته العباسية فى بغداد . الا أن بعض الأمراء أشار اليه أن تكوين خلافة عربية قوية فى

بغداد خطر داهم على استقلال مصر فدبر بيبرس مؤامرة قتل فيها الخليفة . وولى بعده الخلافة أحد سلائل العباسيين أيضا . الا انه لم يعطه من السلطة شيئاً ولم يجعل له أي نفوذ أو دخل فى شئون الدولة . وجعله شخصاً عاديا فى الحاشية مراقباً سجينا لا يبارح القلعة الا بأذن السلطان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الخليفة وليس له من الخلافة الا أسمها فكان بمثابة متمم للحاشية فى الحفلات الرسمية المهمة . وأهم أعماله الاعتراف بالسلطان الجديد ومنحه البركة بصفته أكبر رئيس دينى اسلامى

وفى سنة ١٤١١ م ثار المماليك بزعامة الخليفة على السلطان فرج بن برقوق وقتلوه لأنه اعتبر خارجا على الدين الاسلامى لضربه سكة للمملكة عليها صورته . ثم اجتمع العلماء والمشايخ وزعماء المماليك وطلبوا الى الخليفة العباسى أن يرتقى العرش ليصون الشريعة والدين من تلاعب المارقين فتولى العرش سنة (١٤١٢ م) ولقب الخليفة الامام المستعين بالله

لم يستكن المماليك لعودة النفوذ الزمنى الى الخلافة . فسرعان ما أصبح الخليفة سجينهم . وتولى الحكم المؤيد شيخ . ومنذ ذلك الوقت حرم الخليفة ثانية من جميع امتيازاته وأصبح عمله الوحيد أن يتبع الجيش فى جميع غزواته ليمنحه البركة

عندما احتك المسلمون بالهنود والفرس والاغريق نزعت أفكارهم الى الصوفية . وتسربت هذه النزعة الى أئمة الدين وصبغت الفلسفة الاسلامية . وانتشرت الافكار الصوفية بين المسلمين فنشأت فرق اسلامية عديدة غايتها التوفيق بين المذاهب الاسلامية والنزعات الصوفية

ويرجع فضل اقتباس المسلمين للأفكار الصوفية الى ثلاثة مدارس : جنديسابور وحوران والاسكندريه — أما الأولى فقد أسسها كسرى أنو شروان ملك الفرس (٥٣١ — ٥٧٨ م) وكان من المتأثرين بتعاليم اليونان . كان يدرس بها كثير من الفلاسفة الاغريق الذين اضطهدهم جوستنيان وكان أغلبهم من الآخذين بالتعاليم الافلاطونية الحديثة . فكان لذلك تأثير عظيم على الافكار الصوفية التى ظهرت فى فارس فيما بعد . ثم وصلت هذه الافكار الى متصوفة المسلمين عن طريق الترجمة والنقل . ومدرسة حوران وهى التى أسسها السريانيون كانت مركزا آخر لهذه الثقافة. ولو أن تأثيرها جاء متأخرا . وكانت تترجم بها الكتب اليونانية الى السريانية . ومن هذه ترجمت علوم اليونان الى اللغة العربية . كان الحورانيون يدينون بدين مزيج من الديانة البابلية واليونانية القديمة والافلاطونية الحديثة لذلك أطلق المسيحيون على حوران « مدينة الوثنيين » وأطلق عليها المسلمون « مدينة الصابئة »

أما الاسكندرية فعاصمة مصر اليونانية وبها ظهر مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية هو مذهب الاسكندرانيين أو الافلاطونية الحديثة . ومؤسسه أمنيوس سكاس وهو أول المعلمين

الاسكندرانيين . أو الافلاطونية الحديثة ومؤسسه أننيوس سكاس وهو أول المعلمين الاسكندريين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم افلاطون وأرسطو وجاء من بعده تلميذه أفلاطون « ٢٩٥ — ٢٦٩ » فنظم هذا المذهب . وكان أكبر مؤيديه والمدافعين عنه . بل عن مؤسسه . وقد امتاز بروحانيته ونقده للمذهب المادى

وقد اتصل المسلمون بمدرسة الاسكندرية فى العهد الاموى والعصر العباسى فنقل النساطرة واليعاقبة كثيرا من كتب اليونان الى اللغة السريانية . ثم نقلوها الى العربية وشرحوها

عظم شأن التصوف فى القرن الثانى للهجرة ولم يكن للمتصوفة فى ذلك الوقت رابطة منظمة تجمعهم أو مكان يزاولون فيه طقوسهم . وانما كانوا يسيرون من مكان الى آخر فيتلون الذكر ويرتلون القرآن . همهم الانصراف عن الدنيا تقربا من الله تعالى وكانوا يعلقون أهمية كبرى على بعض تعاليم الدين الاسلامى ويتركون الاخرى

الا انه كانت منهم جماعة اتفقت مبادؤها وتلاءمت أخلاقها فكانت تعيش فى مكان واحد وكان منهم متزوجون وفضل أغلبهم العزوبة لان العائلة تلهى الرجل عن التقشف والعبادة . ولكن الهيئة الاجتماعية الاسلامية التى أمرت بالاهتمام بالعائلة كالاهتمام بالايمان والعبادة لم تجز هذا الرأي . على انه نما واشتد أمره فيما بعد سنة ٢٠٠ هـ فلم يكد القرن الخامس الهجري يبتدىء حتى دخلت الخانقاة الاسلام . وفيها التأم الجمع . تحت تصرف المريدين وكان ذلك الاصل لحركة الدراويش التى سيطرت على العالم الاسلامى واشتد أثرها منذ القرن الحادي عشر . وحلت الدروشة وهى عبارة عن أساليب خاصة فى الذكر والعبادة محل الصوفية التى هى بمثابة نزعة علمية . كانت غاية الدراويش الاتصال بالله بواسطة طرق عدة ومقامات جمة منتزعة مادتها من الحديث والقرآن وأقوال الاولياء . وأكثر هذه الطرق متشابهة من حيث الجوهر . ولو اختلفت وجهات النظر باختلاف المؤلف أو المجتهد

قامت الفرق أثر هذه الحركة وكانت أولها المولوية التى تنسب الى جلال الدين الرومى ثم تلتها الرفاعية وغيرها

تعددت الفرق واختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا وصار الناس لا يفرقون بين الشعوذة والدين والعلم نخالف الدراويش وخاصة عامتهم سنن الزهد والتصوف وخرجوا الى الاعمال جماعات لا رابط بجمعها . ويقال ان الطريقة القدريه فى مصر تميزت بصيد السمك . وان رجالها يحملون فى الاعمال والمواسم أعلاما من الشبك مختلفه الالوان والاشكال واتخذ المولوية لبس التنورة ميزة خاصه بهم

التطورات الدينية الحديثة

الأديان كغيرها من العناصر الاجتماعية دائمة التغيير والتبديل ، وسنحاول أن نعرض فى هذا الفصل لبعض الأفكار التى قامت فى العالم منذ النهضة الأوربية فاعتنقها الكثيرون ، فسارت نحو الانتشار وما زالت تجد كثيراً من المرحبين بها

ابتدأت هذه النهضة بلوثر فقد رأي من نظام البابوية وأخلاق البابوات ما اسخطه فقرر مبدأ تقرير المصير للنفس والانسانية ، وأن خلاص الانسان ليس قضية يحكم فيها الكهنة والكنيسة وإنما هو مسألة خاصة بين الانسان وربه ولاشأن لحكومة أو فرد أو أى هيئة أخري ان تتدخل فيها وقال ان الطقوس الدينية يجب أن تتبع أحكام العقل ولذلك ألغى الطقوس التى لا تتفق ومطالب الحياة أو لا تتماشى مع العقل

ولما أتى القرن الثامن عشر كانت هذه النهضة قد أثمرت وأينعت فابتدأت تظهر بفرنسا نهضة أدبية ، ولكنها فى آثارها وصميمها كانت أكبر من ذلك ، كانت دعوة حارة إلى تحرير الذهن البشرى والاكبار من شأنه والاعتماد عليه ، وكان جميع أبطالها ينظرون إلى أوربا بل الى الدنيا كلها كأنها وطنهم الأصلى وكان أبطالها البارزون فولتير وروسو وديدرو

والنهضة الثالثة ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر حيث ظهر كتاب داروين أصل الأنواع (١٨٥٩) فجعل التفكير فى الأصل والحال والمصير للانسان تفكيرا بشريا ، وتتلخص نظرية داروين فى أن الانسان والحيوان يرجعان إلى اصل واحد ، وأن الموضوع يتعلق بالعلم ، إلا أنه كان سبباً لحرب قلمية قامت بين رجال الدين والعلم مدة أربعين سنة تقريبا فى جميع أنحاء أوربا

هذه هى الحركات القوية التى كان لها أثر بين فى ظهور ما سنعرض له من مذاهب دينية ظهرت فى خلال القرن التاسع عشر ، وقد زاد من تأثيرها التغيير الاقتصادي الذى طرأ على العالم منذ حدوث الثورة الصناعية وأهم هذه المذاهب : الاشتراكية والصوفية الحديثة والبهائية والبشرية

مرت فكرة الانسان عن القوة الروحية فى تحولات عديدة كان آخرها تلك الأزمات الدينية التى سنتحدث عنها والتى تتميز بصعوبة الانسجام مع الظروف المحيطة بها ، ويرجع ذلك إلى عظم التغير الذى أصاب الانسان فلم يعد يرى الاعتقاد بالاله مهماً ، فأخذ يبحث عن إله غيره : شخص قادر على المساعدة وفى نفس الوقت لا يدفعه الاعتقاد فيه إلى عدم الاخلاص للعلم ، لأن للانسان حياة ، ويعلم من تجاربه مصدرها ليس فى الأكل والشرب بل أيضا فى العقيدة الروحية . إن هذه هى المشكلة التى حاول حلها كونت وكانت وعلماء الأخلاق والنفس . والواقع أن لكل حل الحق فى

أن يسمى دينا إذا ساعد على حفظ وتقدم الحياة بطريق الايمان بقوة روحية أعلى من الانسان

كان من أثر الانقلاب الصناعى فى أوربا والتقدم الاقتصادى ظهور الأفكار الاشتراكية التى ترمى إلى تغيير نظام الجماعة تغييرا كليا وكان روبرت أوين « ١٧٨١ — ١٨٥٨ » أول المبشرين بالأفكار الاشتراكية الحديثة أخذ ينادي بوجوب استيلاء العمال على انتاجهم ليتصرفوا به حسب احتياجاتهم . ومن أجل ذلك اخذ يوحد صفوف العمال ويؤسس النقابات ، وفى عام ١٨٣٣ توصل إلى جمع نقابات العمالى فى حزب واحد سماه « حزب العمال الاشتراكى »

فى الوقت الذى كان أوين يجاهد فيه بانجلترا فى سبيل تخليص الانسانية من بؤسها الغارقة فيه من جراء النظام الفردى ، كان سيسموند « ١٧٧٣ — ١٨٤٢ » بفرنسا يحاول أيضا تحقيق هذا الغرض . أخذ يهاجم الرأسماليين وذهب إلى أن تقدم الميكانيكيات ومزاحمتها العمال من شأنها أن تقضى على عدد كبير منهم بالبطالة — كما انها تسبب زيادة الانتاج على الاستهلاك وتحصر رؤوس الأموال والاملاك فى أيدى فئة صغيرة من الناس مما يتسبب عنه أزمات شديدة الخطورة

وفى سنة ١٨٢٤ قام وليم تومبسون تلميذ الفيلسوف بنتام وكان متأثرا بمؤلفات سيسموند وأخذ ينادي بأن من حق كل انسان أن يتمتع بانتاج عمله ، وبالغاء أرباح رأس المال والاملاك الخاصه

وقد تطورت الآن الاشتراكية إلى شكل دينى ، ولو كان لها اله معين يعبده الناس لتم لها النصر بسرعة ، وقد اطلع رسلها على تلك الضرورة بغريزتهم ، ولكنهم لم يجرؤوا على مطالبة الشعب بعبارة كارل ماركس اليهودي الذى هو حبرها النظرى

لم تستهو الآلهة المجردة قلب الجموع قط ، ولذلك تفتقر الاشتراكية ذات المباديء والتعاليم الى رب تدعو الناس الى عبادته ، وليس عليها أن تنتظر كثيرا ليتمثل لها هذا الرب ، إذ أن الآلهة هى بنت الحاجة . وما فى الاشتراكيه من قوة يشتق على الخصوص من كونها وارثة لتعاليم المسيحية ، فقد استعارت مبادىء الاشتراكية من السلف النصرانى ، المتعطش الى المساواة ، وحب الغير ، ولوم الأغنياء . ولذا أصبحت الكثلكة فى بلجيكا حليفة الاشتراكية ، فهى تستحسن فيها اعتصابات العمال علنا . وتشجع على تنازع الطبقات

ولرسل الاشتراكية ما لأنصار المسيحية السابقين من توقد الروح مما يظهر فى كثير من الرسائل والمقالات التى ينشرها عوام الاشتراكيين وعلماؤهم . والواقع ان العالم لا يدخل الى دائرة المعتقد من غير أن يفقد اعتداله وصوابه . ولا فائدة من لومه على ذلك . فللمعتقد على المرء أيا كان سلطان قاهر تتعذر مقاومته

يرجى للاشتراكية الفوز لأنها تستهوى بوعودها أفئدة الساخطين المتذمرين والفقراء وهم

السواد الاعظم من سكان العالم ولانها تسد النقص الملموس الناتج عن التقدم العلمى وظهور المخترعات والآلات ولانها وسط بين نظامين يتألف منهما المتدينون وهما الشيوعية والفردية وقد أخذت منهما حسناتهما ونفضت عنها نقائصهما الظاهرة

وسعادة الاشتراكية المدعوة دنيوية تنال فى هذه الحياة لا فى حياة أخرى وانها لذلك قد تعجز بسبب من الاسباب عن انجاز وعودها تامة كاملة ولكننا لا ننسى كذلك أن الكمال فى الدنيا ضرب من المستحيلات وانه وان كانت الاشتراكية لن توصل معتنقيها لحالة من النعيم لا مطلب خلفها الا أنها قد تستطيع أن تنتشلهم من حالتهم الى ماهو خير منها .وليست الاشتراكية نهاية ما يمكن أن يتطور اليه النظام الاجتماعى وعليه فالتطلع للأحسن سيدفع الناس دائما للتنقيب عما فيه سعادتهم ورفاهيتهم

قام بجانب مذهب الاشتراكية الاقتصادى مذهب التيوصوفية الروحى وتعتبر مدام بلافاتسكى مؤسسة الصوفية الحديثة وهى روسية الأصل ابتدأت حياتها عندما هجرت روسيا ورحلت الى الهند فأخذت تدرس الحكمة الشرقية وتشبعت نفسها بالحكمة الروحية ، فكرست بقية حياتها فى نشرها

رحلت الى أمريكا وهناك قابلت كوك أولكونت أحد الصحافيين المشتغلين بالعلوم الروحية فأسسا أول جمعية تيوصوفيه بنيويورك « ١٧ نوفمبر ١٨٧٥ » وكان الاخير رئيسا لها وكان غرضها:

١ — تكوين نواة للأخاء العالمى للانسانية بدون تمييز للجنسية والمعتقد والجنس والطبقات والالوان

٢ — تشجيع دراسة الآداب والأديان والعلوم الشرقية وعلى الخصوص الآريه

٣ — البحث عن قوانين الطبيعة الغامضة وقوى الأنسان الروحية

استمد مؤسسو الصوفية عقيدتهم من الفكر الدينى القديم وعلى الخصوص ما انتجته الهند ، وهم يحاولون أيضا أن يربطوا عقيدتهم بالتطورات الفلسفية الحديثة والفروض العلمية ، فأصبحت نظرتهم الدينية لنظرية التطور وفلسفة هيجل وللفلسفة العلمية وغيرها تكون مذهبا واحدا

واذا تأملنا فى القطعة الآتية التى كتبتها آنى بيزانت أكبر مبشرة بالصوفيه . فقد نستطيع تكوين فكرة عن كنه التعاليم الصوفية

« إن الحياة والوجدان والكون ليست إلا مظاهر أو تجليات من مظاهر الله وتجلياته ، وهو واجب الوجود لذاته لايدرك الانسان كنهه ، وهو أزلى ، أما الكون فزائل يبقى ملايين من السنين ثم يزول ، ومن ثم يعود الخلق والزوال ، ويصدر الكون عنه بواسطة اتحاد الهيولى بالجوهر ، وبعبارة أخري باندماج السلب بالايجاب ، وليس لأنهما منفصلان بعضهما عن البعض ، بل لأنهما

مفترقان افتراق كل من القطبين الأيجابى والسلبى عن بعضهما فى المغناطيس ، حال أنهما موجودان فى كل ذرة من ذراته » . « وتكون مدة حياة الانسان فى هذه الدنيا متصلة بالطبيعة الأرضية فيه وذلك بواسطة العقل الذي هو قسمان :— قسم عال ، وآخر عادى ، فالعالى والعلوى يصعد إلى أعلى والعادى أو السفلى يطلب الأسفل ، أى يطلب الحياة ، وذلك لأنه ممتزج بالعواطف »

« وعند الموت تطلب الروح والنفس والعقل الانفصال عن الطبيعة الدنيا للأنسان فى حين يعود العقل السفلى ، الى مصدره ، وهو العقل العلوى ، يحمل معه ماتعلمه مدة حلول النفس فى الجسد ، وتظل هذه الثلاث . الروح والنفس والعقل مطمئنه الى ما أفاده العقل من الخبرة فى حال من الوجدان مريحة مستقلة عن الجسم الدنيوى وعن كل ما يتصل به من حدود وأوضاع وعوائق مختلفة ، وهذه حال تظل وفقا لدرجة الارتقاء التى يبلغها الانسان فى أثناء مقامه فى الأرض ثم تنتهى برجوع هذا الوجدان إلى الجسم أي بنقصه أو حلوله فى جسم ثان وهكذا »

لنتحدث الآن عن البهائية « وتعتبر أكثر المذاهب الدينية انتشارا فى القرن الماضى » نشأت البهائية فى أواسط القرن التاسع عشر على يد الباب الذى سار سيرة معظم الأنبياء إذ دعا دعوته فصار له أولياء وأعداء ثم قبضت عليه الحكومة فى تبريز وأعدمته فى ٩ يوليو سنة ١٨٥٠ وقتل أيضا كثيرون من تلاميذه الذين تحمسوا فى نشر دعوته ولكن هذا القتل زاد الدين الجديد انتشارا لأنه اكسب المقتولين سمة الشهداء وعطف عليهم القلوب ، وكان من تلاميذ الباب رجل يدعى الميرزا حسين على فوزى ولد سنة ١٨١٧ وقد لقب بعد ذلك بلقب بهاء الله واليه نسبت البهائية . قبض عليه أيضا سنة ١٨٥٢ فى طهران ثم نفى إلى بغداد مع سائر من نفوا اليها . ولكنه استطاع أن ينزل رفقاءه فى بغداد ويعيش منفردا ناسكا فى جبل يقع فى شمال الليمانية ، وفى هذا الأنفراد استطاع أن يجمع قوى نفسه ، ويتحد مع الطبيعة

وكأن الانفراد والعزلة والانعكاف خصال يحتاج اليها كل نبي أو مفكر لكى يزن نفسه أمام الطبيعة ويخاطبها ويتفاهم وهذا الكون الذي يحجبه عنه ضوضاء الناس وأحوال الاجتماع . وما أن قضى السنين ناسكا فى ذلك الجيل حتى الفى نفسه تثور به الى العمل فعاد الى بغداد وهناك وجد الجالية الفارسية المنفية التى استقبلته كأنه الزعيم بل النبي لهذا الدين الجديد ، ثم نفى البهائيون من بغداد إلى الاستانة ، وبينما هم فى الطريق وقد حطوا رحالهم للراحة خطبهم بهاء الله خطبة جاء فيها « يجب أن تكفوا منذ الآن عن نبز الناس بالكفر إذ ليس فى العالم كفار وإن الله خلق الناس كأنهم القطرات المنفصلة من ماء بحر واحد . اوهم الأوراق من شجرة واحدة ، فجميع الناس طاهرون ليس بينهم نجس ، وإن الباب لم يستشهد فى سبيل الفرس والأسلام ، بل فى سبيل جميع الناس

على السواء وقد مضى زمن الأديان وبزغ فجر الدين »

والبهائية دين لا يعتمد على سلطته ، ولا يدعو الى عقائد يجزم بها ، وليس له كهنة يحمونه ، أو دولة تدافع عنه ، بل يقول بهاء الله أنه يجب على كل إنسان أن يؤمن بما يقتنع به . فالدين يجب أن ينبع بقوة الضمير من قلوبنا إلى السنتنا ولا ينزل بقوة السلطان من السنتنا إلى قلوبنا . ثم هو يقول إن الوحى لم ينقطع لأن الأنسان مايزال متصلا بالسماء وتكاد تحسبه بعد العبقرى نبيا يوحى اليه ومن أعجب ملاحظاته قوله « إن الكاهن هو العدو الطبيعى للنبي لأنه يمنع تطور الدين وترقيته عند مايرى أن مصلحته تطالبه بلزوم الحرف دون الروح »

وخياله عن الله هو خيال المتصوفين المسلمين فهو يقول إن الله كان فى الذرة وإنما تتفاوت درجات الألوهية فى الناس . فكل انسان إنما هو إنسان واله معا تزدوج فيه الطبيعتان أو هما طبيعة واحدة

ويقول إن البعث الذى يراد به إحياء الأجسام بعد الوفاة إنما هو بعث وتجديد فى حياتنا الراهنة . والنبي هو ذلك الذى يبعث نفوس الناس ويجددها وهو هنا يوافق المسيح فى قوله « يجب أن تولدوا من جديد » وإنما الميلاد الجديد هو تجديد النفس وبعثها من خمولها السابق إلى يقظة الايمان

لنستعرض بعد ذلك البشرية وهى رابع المذاهب التى يتحدث عنها هذا الفصل

يعتبر أوجست كونت « ١٧٩٨ - ١٨٥٧ » أول المنادين بالبشرية وضع قانون التطور الفكرى ويتلخص هذا القانون فيما يلى : —

كان الناس فى بدء أمرهم ينسبون الظاهرات التى يشاهدونها إلى قوات غير منظورة يدعونها آلهة وهذا هو العصر اللاهوتى مع مختلف عقائده من حيث التوحيد والتعدد

ولكنهم لما رأوا أن الظاهرات تحدث على وتيرة واحدة لاتتغير ، وهذا لايتفق مع الارادة المتغيرة ، اعتقدوا بوجود صفات خفية أو خواص أو سوائل جاذبة ، وهذا هو العصر النظرى

وأخيرا أخذ التأمل يبدد تلك الخطرات الفكرية المضطربة التى لاترتكز على أساس ، وبحث الفكر فى أسباب تلك الظاهرات التى تسبق أو تلائم حدوثها ، وهذا هو عصر العلم الوضعى

وقال ان الشىء الواقعى هو وحده موضع العلم ، لأنه وحده الذي يمكن تحقيقه بالاختبار . وربط أسبابه بمسبباته ، فالحوادث التى يمكن ملاحظتها هى الحوادث الظاهرة ، أما الحوادث الباطنة فلا يمكن معرفتها ، فالبحث عن العلل الفاعلة الغائبة بحث مناف للعلم ، ولايفهم من ذلك أن العلم يؤدى الى القول بالمادية وبالالحاد لأنه لاينكر النفس ولا الله انما يجهلهما وأدى به القول أخيرا الى الاعتقاد بدين عام للانسانية

وجدت فكرة البشرية التى قال بها كونت كثيراً من المحبذين لها وخاصة من الفلاسفة ورجال العلم ، وذلك لأن البشرية ليست ديناً إلهياً ، بل غايته البشر وخدمتهم ومنفعتهم ، وليست له غاية أخرى كعبادة الله ، أو الخلود ، أو المكافأة بالجنة أو المعاقبة بالنار

وهذا الدين ليس حديثا فان اسمه الأوربى Humanism يرجع الى عصر النهضة وهو يقوم على درس الآداب القديمة والحديثة ويجعل من هذه الآداب مرداً للنفس البشرية تئوب اليه كما تئوب نفس المتدين الى القرآن أو الانجيل ، ولكن معنى هذه اللفظة فى تطور . فهو لم يكن يعنى فى عصر النهضة دينا جديدا يقوم مقام المسيحية ، وانما كان يعنى نزعة جديدة تنزع بالناس الى درس الكتب الوثنية والآداب بجانب الدين . أى أن الثقافة يجب ألا تقتصر على الدين والبحث حول المذاهب والاعتقادات المسيحية كما كان الشأن فى القرون الوسطى وانما يجب أن تتعداها الى درس الفلاسفة والأدباء

ولكن المعنى الآن يختلف لأنه يعنى الايمان بالانسان بدلا من الايمان بالله واستنباط الضمير الانسانى من الفلاسفة والأدباء والاجتهاد فى إسعاد الناس على هذه الأرض بدلا من أن يطمعوا فى سعادة الآخرة . والنزول على حقائق العلم

ويقول البشريون فى أساس الأخلاق . ان الفضائل ليست مراسيم إلهية . وإنما هى اختبارات إنسانية ، وهى فى تطور لاينقطع . فنحن نؤمن بالشجاعة والعفة والكرم والوطنية ونقول بالأمر والأمانة فى الحب وحرية المرأة والغاء الرق ومحو الاستعمار وتأسيس المؤسسات للابحاث العلمية ، والحض على قراءة الأدب والدعوة الى العدالة الاشتراكية ، وغير ذلك من الفضائل لا لأننا تناولناها من الدين بل لأننا وجدنا بالاختبار الانسانى أنها أشياء نافعة يجب أن نحض عليها ، وأننا نؤذى الهيئة الاجتماعية التى نعيش فيها إذا لم نمارسها

فالأساس المعقول للاخلاق عند البشرى هو الاختبار الانسانى وحسبه ذلك ويجب عليه ألا يبغى مايتجاوزه من سلطان إلهى ليقره عليه

يجب أن يكون الدين عملا لاصوفية ، فان الفرد لم يعد هو المسئول عن نفسه من حيث ذنوبه وجرائمه ونقصه الاخلاق بمقدار مسئولية الهيئة الاجتماعية عنه لانه يسير مقيداً بقوانين بيولوجية واجتماعية واقتصادية ، وغيرها من العوامل التى تتحكم فيها الدولة ، لذلك تحولت حاجته للدين إلى الحاجة لمعونة الهيئة الحاكمة

مازال معتنقو المذاهب التى تحدثنا عنها يعملون نحو نشرها بكل الوسائل الممكنة ، ولو أنه لاينتظر لها نجاح عظيم يفوق ماأحرزته حتى اليوم من النصر

لا أن نصرها الحقيقي ينحصر فيما جنته الاديان من الفائدة بسبب ظهور هذه المذاهب ، فقد قام بها المصلحون ينادون بوجوب إحياء العقائد الموروثة والعمل على اصلاحها . ولنسمع الآن لما يقوله غاندى أكبر مصلح دينى عرفه العصر الحديث :

« لا أقبل أن أجعل من الدين اسماء ، وأن أفعل الشر باسمه المقدس فعقيدتى فى دينى لاتحملنى على تصديق كل كلمة وكل شطرة كأنما هى إلهام . وأرفض أن أقيد بتفسير ما مهما كان علمياً إذا كان لايتفق مع العقل أو الخلق »

« انى أجد فى دينى كل ما أحتاج اليه للتكشف الداخلى ، لأن دينى هذا يعلمنى الصلاة ولكنى أصلى أيضا حتى يجد كل انسان تكشفه الداخلى فى دينه وحتى يرقى المسيحى والمسلم فى دائرة دينه فيصير كل منهما أصلح مما كان . وانى واثق أن الله سوف يسألنا عن حقيقتنا وعن أعمالنا ولن يسألنا عن الاسم الذى تسمى به هذه الحقيقة أو هذه الاعمال »

ويقول تاجور فى حديث له :

« انه لمن العجب أن تكون الهند الأمة الوحيدة التى زودت العالم فى القرن التاسع عشر بأول رجل أممى . أعنى به رام موهان روى . فقد كان هذا الرجل شغوفا بالحقيقة نشأ فى أسرة سنية من أسر البراهمة ، ولكنه تملص من جميع القيود والشعائر . وكان يدرس البوذية ، ورحل الى تبت لهذه الغاية ، ودرس العبرانية والعربية والفارسيه والانجليزية والفرنسية ، وساح كثيرا فى أوربا ، ومات فى برستول بانجلترا ، ولم يكن يفهم من الحقيقة الروحية تلك الشعائر التى تؤدى فى المعابد ، ولم يكن يعتقد أن هذه الحقيقة مما يجوز أن يسام الناس الايمان به على الرغم منهم وانما كان يعتقد أن هناك رابطة روحية تربط جميع البشر وأن غاية الدين هى الوصول الى هذا الاتحاد الأساسى فى العلاقات والجهود والأعمال الانسانية »

وفى ذلك يقول غاندى أيضا :

« ليس الدين الفكرة التى يخرج بها الانسان بعد أن يقرأ كل الكتب المقدسة التى أتت بها أديان الارض ، انما الدين شىء لايدركه العقل ولكنه شىء يحس به القلب ، وليس الدين بشىء يهبط علينا من الخارج . بل شىء يتطور بتطور إحساساتنا الداخلية . وقد يعى البعض شيئا من هذا التطور ، ولكن الكثيرين لايعون منه شيئا ، وسواء أتطور الدين بوعى أم تطور من غير وعى فانه موجود دائما . وله فى كل الحالات الاثر الباقى فى كل أعمالنا »

لننظر الآن إلى أقوال بعض فلاسفة وعلماء العصر الحديث لنرى بأي منظار ينظرون الى العقيدة الدينية . يقول علماء الأرخولوجيا :

ليست قصة آدم وحواء . وغيرها من قصص الأديان إلا رموزا . تبرز للناس الحقائق السامية الشاملة التى تدعو اليها الأديان ويخلدها ضمائر البشر وبصائرهم . هذا هو الواقع ، وهذه هى طبيعة النفس الأنسانية . التى تتمثل فى عقلية الجموع ، وأبناء الأديان جميعا . فالغاية هى التسامى بالنفس والايمان بالله . وبالحق وبالخير ، فلنتخذ فى ذلك الوسائل كلها ، مادامت هذه الوسائل لاتبعدنا عن غايتنا ، بزحزحتنا نحن عن هذه الغاية ، وبصيرورتها هى الغاية . لتكن الموسيقى والصور ، والتماثيل والتهاويل ، والأصوات الجميلة كلها فى خدمة الدين ولتستخدم فى اثارة الروح السامية فى الناس الذين شغلتهم حاجيات اليوم عن النظر فى أعماق النفس ، والأنصات الى صوت الله ينبعث من أغوار القلب

ويتكلم برجسون فى فلسفته عن وسط تنطلق منه العوالم كالأسهم النارية وهو ليس شيئا جامدا ولكنه حياة مستمرة منطلقة حرة . هذا الوسط هو الله ، خلق المادة والحياة والانسان ، وقد وجدت فى الانسان قوة مبدعة من شأنها أن تتم عمل الله فى الخلق والأبداع فكأن قوة الله المبدعة لاتنحصر فى ذاته ولكنها تمتد الى المخلوقات الراقية

ويرى برجسون أن الدين نوعان أحدهما الدين الاجتماعى الذى تؤلفه الأمة ببصيرتها وتنسج منه القصص والأخيلة التى تتمسك بكيانها الاجتماعى والآخر وهو الصوفية التى يحاول أن ينتقل بها الفرد عن الجماعة فى إيمانه الدينى ، ويقول برجسون إن الصوفية تنشأ من اعتماد الصوفى على بصيرته دون ذهنه وهى عندما يبالغ فيها تنتهى بالفصل بينه وبين الدنيا ، والصوفى هنا كالرياضى الذى يلعب بالأرقام حتى تنتهى به إلى أوهام لاعلاقة لها بالواقع

والمغزى أن برجسون يؤيد البصيرة ويقول بتأييد أخلاق الجماعة ودين الجماعة . أما الفرد الذى يعتمد على ذكائه . أى عقله فهو يخشاه ويرى فيه عاملا للتفكك . وان كان فى بعض الاحيان ضروريا للرقى

ويقول جيمس جانز العالم الطبيعى الانجليزى — .

« اذا كان هذا الكون هو كون فكرى فان خلقه كان لابد عمليا فكريا . والحقيقة ان وجود حدود للزمان والفضاء يكاد يضطرنا وحده الى أن نتخيل هذا الكون باعتباره عملا من أعمال الفكر ويجب أن يكون الزمان والفضاء اللذان جرى فيهما هذا الفكر قد وجدا كأنهما جزء من هذا العمل . . . ومعارفنا الجديدة تضطرنا الى أن نراجع آراءنا التى تعجلنا فى ارتيائها والتى تقول بأننا انما قد وقعنا فى هذا الكون على غير قصد وان هذا الكون لا يبالى بالحياة بل تقف منها موقف العداء . فانه الازدواج القديم عن العقل والمادة . وهو السبب لهذا الاعتقاد

بالعداوة . يبدو لنا أنه سيزول .. وذلك بأن تصير المادة مظهرا من مظاهر العقل بل عملا من أعماله ونحن نجد فى هذا الكون ما يدل على وجود قوة تضبطه وتديره وهذه القوة تشترك فى كثير من صفاتها مع عقولنا . وليس هذا الاشتراك فى العواطف والاخلاق والاحساس بالجمال . ولكن فى طريقة التفكير التى نسميها نحن تسمية ناقصة بالطريقة الرياضية »

ويرى ادنجتن « ان الشعور عنصر أساسى فى الكون فللانسان قيمته الكونية . لانه يتصل بالطبيعة عن طريق الشعور . ويظن فى بعض لمحات من اتصاله هذا انه يرى نظاما . وفى هذه اللمحات يعينه العلم بعض الشىء على تبين النظام »

ويرى أن المذاهب الدينية عوائق فى سبيل التوافق بين النظرة العلمية والنظرة التى يقال ان الدين يقتضيها ، فليس فى العلم عقيدة . ومن المستحيل انشاء دين قائم على العلم وحده كما يريد البعض أى دين يكون فيه كل اكتشاف علمى مظهراً جديدا من مظاهر صفات الله ، وذلك تخلصا من نظرية الخلق ، التى لا تتفق وما هو معروف من الحقائق العلمية . ثم يقول : يجب ألا تقيد الروح الحرة الباحثة ، عن الحقيقة بقيد ما ، فالعالم ينفر من اشباع البحث العلمى بالمعانى الدينية ، وليس ذلك لأنه شديد التعصب لمعتقده ، أو شديد النفور من الدين ، ولكن لأن هذا الاشباع يشوش عليه الأسلوب الذى يجرى عليه فى البحث ويلون الحقائق ، أو ما يظنه حقائق ، بألوان التفكير الشخصى ، والرغبة الخاصة ، فدين علمى كالمثال الميكانيكى للدماغ ، كلاهما غير مرغوب فيه . لأن الأمثلة الميكانيكية . تحول دون فهم ما هو وراء العالم المنظور »

كتب أينشتين فى احدى مقالاته عن الدين والعلم ، العبارة الآتية

بعد أن أشار إلى فكرة تزويد الله بالخصائص البشرية وهى الفكرة الموجودة فى أغلب الأديان « الأشخاص الموهوبون فقط أو الجماعات الراقية هى التى ترتفع عن هذه الفكرة وفى ذلك توجد درجة ثالثة للاختبار الدينى رغم انها نادرة الوجود بشكل مجرد . وانى أسميها الحاسة الدينية الكونية ومن الصعب تصيرها لمن لا يمارسونها لأنها لا تنطوي على تزويد الله بالخصائص الانسانية ، يشعر الفرد بغرور الرغائب والاغراض الانسانية ، وبنبل وعظمة النظام المتجلى فى الطبيعة وفى عالم الفكر وكذا يشعر بأن المصير الشخصى بمثابة قيد ، ثم يحاول الامتزاج بالوجود كله كوحدة تامة المعنى . والدلائل على هذه الحاسة الدينية الكونية ، يمكن وجودها فى بعض مراقى التطور القديمة فى أقوال بعض الاتقياء »

« وقد امتاز عباقرة الدين فى جميع الازمان بهذه الحاسة الدينية الكونية ، التى لا تعترف بمذهب أو بالهٍ على صورة الانسان . فكيف يمكن نقل هذه التجربة الدينية من شخص الى آخر ، إذا

كانت لا تستطيع السير بنا إلى صورة محددة عن الله ، أو الى مذهب ما »

« ويلوح لى أن أهم وظيفة للفن وللعلم ، هى خلق وتعهد هذا الشعور فيمن يقبلونه ، وطبيعى ان الكنائس حاربت العلم دائما واضطهدت العلماء ، ولكنى أجزم من جهة ثانية بأن العاطفة الدينية الكونية ، أقوى وأنبل القوى المسيرة وراء البحث العلمى »

ثم يقول فى حديث له : —

« أن أجمل شىء نشعر به فى حياتنا هو تلك الصوفية الخفية ، فهى منبع كل فن وعلم حقيقيين ، ومثل من لا يغمره هذا الشعور ، ومن لا يستطيع أن يقف ليعجب فى رهبة كمثل الميت ، فهو حى يعيش بعينين مغلقتين ، وهذه البصيرة النفاذة إلى سر الحياة ، وان لازمها الخوف ، هى التى أوجدت الاديان ، ومعرفتنا أن مالا يمكننا احترافه أو الوصول اليه موجود فعلا وانه منجل لنا كأنه الحكمة العليا ، والجمال الفياض ، تستطيع ملكاتنا ادراكه فى أحط أشكالها البدائية ، هذه المعرفة وهذا الشعور هما فى صميم التدين الحق وبهذا المعنى . وبهذا المعنى فقط انتمى إلى صفوف المتدينين المخلصين »

« وانى لا أتصور إلها يكافىء ويعاقب خلائقه على أعمالهم — إلهاً قد حددنا أغراضه وأعماله على مثال أغراضنا وأعمالنا ولم تجعله إلا صورة أخرى من الضعف الانسانى . كما انى لا أعتقد ان الانسان سيعيش بعد موت جسمه ، ولو أن بعض ذوي النفوس الضعيفة يلجأون الى مثل هذه الافكار بدافع الخوف أو الغرور المثير للضحك ، وانه يكفينى أن أتأمل فى أسرار الحياة الخالدة وأن أفكر فى هذا التكوين العجيب للعالم ، الذى لا نستطيع أن ندركه ادراكا تاما ، وأن أحاول فى خضوع أن أدرك ولو جزءا دقيقا من ذلك الذكاء الذى نشاهده فى أعمال الطبيعة »

اتضح من الآراء التى عرضنا لها . ان علماء هذا العصر يمتازون بنزعة روحية . تختلف كثيرا عن النزعة المادية التى اتصف بها علماء القرن التاسع عشر . فلنحاول الآن تلخيص هذه الآراء

ليست الذرة سوى قوي كهربائية فى حركة دائمة وهذا الوجود المادى ليس إلا قوة وحركة ، وليس ثمة وجود لتلك الفروق التى نحس بها فى مختلف أشكاله ونواحيه . فليس هذا الوجود بمظاهره المتنوعة . الا سيالا متدفقا من القوة . بل هو مظهر من مظاهر الروح . وليس ما نحس به من مختلف الاجسام والصور . وجود حقيقى خارج الفكر . ولكن الحقيقة الوحيدة التى تدل عليها هذه الاشياء هى وجود احساسات متنوعة . كائنة فى الانسان مركزها الفكر وان هذا الوجود المادى ليس الا صورا منه لا حقيقة مطلقة . فلا وجود للنور والصوت والحرارة . خارج فكر الانسان ذلك لانها ليست سوى اهتزازات مختلفة السرعة والقوة . للاثير . يتأثر بها الفكر تأثرا خاصا .

فيطلق عليها هذه الاسماء ، فليس هـذا الوجود المادى الا فكرة فى عقل الانسان ، ويتفاوت الانسان فى ادراكه باختلاف خاصيته واستعداده كذلك ، فالوجود المطلق فكرة فى العقل الاعظم وقد يصل بعض الاشخاص الممتازين الى هذه الحقيقة التى هى رقى فكرة دينية ، فيبلغون درجة الشعور الدينى الصوفى وهو لاينطوي على تشبيه مادى للذات الالهية ، ولايشمل صورة للخالق وانما علاقة هذا الشعور ادراك مايأتى : —

١ — بطلان الرغبات الزائلة والاغراض الانسانية المتنوعة

٢ — جلال النظام المدهش الذى يتجلى فى عالم الطبيعة والفكر

٣ — تقيد مصير الانسان بهذا النظام الكونى العجيب

٤ — اعتبار هذا الوجود الكونى وحدة مشعة بأسمى المعانى

مراجع الكتاب

نشوء الدين

Durkheim — Les Formes élementaires de le vie religieuse.
Grant Allen — The Evolution of the Idea of God.
Frazer — Tho Golden Bough.
Lende — The Psychological Origin & Neture of Relegion.
Morgan, B, D. — The Grey Dawn of Religion.

الديانة المصرية القديمة

Moret & Davy — Des Clans aux Empires.
Steindorff, G. — The Relegion of Ancient Egypt.
Smith, G. Elliot — In the Begiuning.

سلامه موسى — مصر أصل الحضارة

اليهودية

Abraham —, Israel — Judeism.
Fleg, Edmond — Anthologie Juive.
Josephus, Flavius — The Wars of the Jews.
Levine, Ephraim — Judaism.
Montent, Edouard — Histoire du Peuple d' Israel.
Renan, Ernest — Histoire du Peuple d'Israel.

اسرائيل ولفنسون — تاريخ اليهود فى بلاد العرب

المسيحية

Bacon, Benjamin W. — The Making of the New Testament.

Cauly, Mgr — Histoire de le religion et de l'église.
Gibbon — The Decline & Fall of the Roman Empire.
Maycock, A. L. — The Papacy
Postel, V: — Histoire de l'église.
Robertson, J M — A Short History of Christianity
Yearsley, Maclead — the Story of the Bible

الاسلام

Dozy, R F A — Essai sur l'histoire de I,Islamisme
Margoliouth, D. S. — Mohammedanism

احمد امين — فجر الاسلام وضحى الاسلام
بندلى جوزى — من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام
الشيخ محمد الخضرى — محاضرات تاريخ الامم الاسلامية
عبد اللطيف الطاوى — التصوف الاسلامى العربى
فان فلوتن — السيادة العربية . ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن
الكونت هنري دى كاستور — الاسلام . ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا

مراجع عامة

Clemen, C. Les Religions du Monde.
Encyclopaedia Britaninca
Harmsworth History of the World
Huby — Cristus
Martihdsle, C C The Religions of the World
Sullivan & Walter Grierson Outline of Modern Belief

الشهرستانى ـ الملل والنحل
عمر عنايت ـ العقائد
نوفل ـ سوسنة سليمان — فى اصول العقائد والايان

فهرس

٤ مقدمة

١٠ نشوء الدين

١٦ الديانة المصرية القديمة

٢٣ اليهودية

٢٨ المسيحية

٣٩ الاسلام

٥٠ التطورات الدينية الحديثة

٦١ مراجع كتاب

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 073505792